الحنين في شعر العصر العباسي الأول
١٣٢ ـ ٢٣٤هـ

إعداد
عيسى حسن فالح الرواجبه

المشرف
الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم حُوَّر

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير
في تخصص الأدب والنقد

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا في الجامعة الهاشمية
الزرقاء – الأردن
٢٠١١/٥/٩

نوقشت هذه الرسالة وأجيزت بتاريخ ٢٠١١/٥/٩

أعضاء لجنة المناقشة	**التوقيـــــع**
الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم حُوَّر، رئيساً أستاذ، الأدب والنقد	....
الدكتور عمر عبد الله الفجاوي، عضواً أستاذ مشارك، الأدب القديم	....
الدكتور يوسف محمود عليمات، عضواً أستاذ مساعد، الأدب القديم	....
الدكتور محمد موسى العبسي، عضواً أستاذ مشارك، الأدب القديم، جامعة آل البيت	....

الإهداء

إلى أمي الحبيبة ...

إلى أبي الحبيب ...

إلى إخوتي وأخواتي الأعزاء ...

إلى الغرباء ...

إلى أصحاب الشّوق والحنين ...

أهدي هذا البحث.

شكر وتقدير

لله الشكر من قبل ومن بعد، ولأنّ من لا يشكر الناس لا يشكر الله؛ فإنني أجد لزاماً عليّ أن أتقدم بالشكر الجزيل وعظيم التقدير لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور محمد حوّر الذي منحني من وقته وصبره الكثير الكثير، فلم يبخل علي في معلومة أو مشورة، حتى خرج البحث على هذه الصورة. ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل للجنة المناقشة التي تحملت عناء قراءة هذا البحث والتعليق عليه حتى يخرج على أحسن صورة.

المحتويات

الموضوع	الصفحة
الملخص	ز
المقدمة	١
التمهيد	٥
مفهوم الحنين لغة واصطلاحاً	٦
الحنين في التأليف	٨
الحنين في الشعر قبل العصر العباسي	١٣
الفصل الأول: الحنين في شعر العصر العباسي الأول	١٨
المبحث الأول: الحنين إلى البادية	١٩
المبحث الثاني: الحنين إلى المدن والحواضر	٣٤
الحنين إلى بغداد	٣٥
الحنين إلى البصرة	٥٣
الحنين إلى دمشق	٥٦
الحنين إلى المدينة المنورة	٦٢
الحنين إلى اليمامة	٦٧
الحنين إلى غزّة	٧٥
المبحث الثالث: الحنين في شعر الفاتحين الجدد	٧٧
المبحث الرابع: الحنين في شعر المرأة	٨٩
الفصل الثاني: الغربة في شعر العصر العباسي الأول	٩٢

الفصل الثالث: الوسائل الفنية في شعر الحنين.. ١١١

الإبل.. ١١٢

الحمام.. ١١٣

الرياح... ١١٦

البروق.. ١١٨

النجوم.. ١١٩

النخل... ١٢١

الدموع.. ١٢٢

الطيف.. ١٢٥

الخاتمة.. ١٢٧

المصادر والمراجع.. ١٣١

ملخص باللغة الإنجليزية.. ١٣٩

ملخص

الحنين في شعر العصر العباسي الأول

١٣٢ - ٢٣٤هـ

إعداد

عيسى حسن فالح الرواجبه

المشرف

الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم حُوّر

يهدف هذا البحث إلى دراسة ظاهرة الحنين في شعر العصر العباسي الأول، ومعالجة ما طرأ على شعر الحنين في هذا العصر من تطور وتجديد في موضوعاته وبنائه، وذلك في ظلِّ ما شهده هذا العصر من أحداث تاريخية وسياسية، وازدهار في الحضارة، وتمصير للأمصار، وبناء للمدن. فقد خاض شعراؤه تجربة الغربة والنزوح عن الوطن، سواء أكانت الغربة لدواعٍ سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية، وعبّروا بأشعار صادقة عن حنينهم إلى أهلهم وأوطانهم.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة. وتبين المقدمة أهمية البحث، وتظهر مكانته بين الدراسات الأدبية التي تناولت ظاهرة الحنين، ومصادره، ومنهجه، وخطواته. وتحدثت في التمهيد عن مفهوم الحنين لغةً واصطلاحاً، وعن مؤلّفات الأدباء القدماء في الحنين، وعن حال الحنين في الشعر قبل العصر العباسي.

أمّا الفصل الأول، وعنوانه الحنين في شعر العصر العباسي الأول، فقد جاء في أربعة مباحث: تناولت في المبحث الأول الحنين إلى البادية، وتناولت في المبحث الثاني الحنين إلى المدن والحواضر، وتناولت في المبحث الثالث حنين الفاتحين الجدد، وتناولت في المبحث الرابع حنين المرأة.

أمّا الفصل الثاني، وعنوانه الغربة في شعر العصر العباسي الأول، فقد ناقشت فيه علاقة الحنين بالغربة، فتحدّثت عن مفهوم الغربة، وعلاقتها بالحنين، وأوردت بعض الأقوال والأمثال والحكم التي تبين أثر الغربة في الإنسان الغريب، ثم عرضت فيه لغربة شعراء العصر العباسي الأول. أمّا الفصل الثالث، وعنوانه الوسائل الفنية في شعر الحنين، فناقشت فيه ما اعتمد عليه شعراء الحنين في العصر العباسي الأول من عناصر الطبيعة وغيرها للتعبير عن تجربة الحنين والغربة، وكانت هذه الوسائل مستمدّة من الشعراء الأوائل في العصرين الجاهلي والإسلامي،

وهي: الإبل، والحمام، والرياح، والبروق، والنجوم، والنخيل، والبكـــاء والــدموع، والطيــف والخيال. أمّا الخاتمة فقد تضمّنت أهمّ النتائج التي توصّلت إليها في هذا البحث.

مقدّمة

الحمد لله الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمّا بعد، فقد بدأت رحلتي مع هذا البحث باختيار الموضوع، وقد كنت في حَيْرة من أمري وأنا أبحث عن موضوع لرسالة الماجستير إلى أن أشار عليّ مشرفي الأستاذ الدكتور محمد حوَّر أن أكتب حول موضوع الحنين في شعر العصر العباسي الأول؛ ولمّا كانت تحدوني رغبة إلى دراسة الشعر في هذا العصر، وقع الاختيار على هذه الظاهرة بوصفها ظاهرةً إنسانيةً وجدانيةً، فتمَّت هذه الدراسة، وأنجزت وفق الخطة المتبعة في طرق البحث.

وتكمن أهمية هذا الموضوع في تحديد فترته الزمنية، الواقعة في العصر العباسي الأول، فقد شكّل هذا العصر بداية انتقال الخلافة من الأموية إلى العباسية، ومن السلطان العربي إلى النفوذ الفارسي. ومن البيئة العربية الخالصة الملتصقة بالجزيرة العربية إلى البيئة القريبة من الثقافة الفارسية الشائعة. ومن عاصمة الدولة في دمشق إلى عاصمتها في بغداد. وقد ساعد هذا كله على أن يكون هذا العصر عصر غربة وقلق واضطراب، انعكس على تفكير عامة الناس وسلوكهم، ناهيك عن انعكاسه على خاصتهم وأولي الأمر منهم. وقد كان الشعراء والأدباء جزءاً من هذا المجتمع في هذا العصر، فلجأوا إلى العاصمة الجديدة، واستقروا فيها، وتفاعلوا مع عصرهم وأهله – الخاصة منهم والعامة – . وكان هذا التفاعل يحمل بين طياته مظاهر الرضى والراحة تارة، ومظاهر الألم والضيق والغضب أخرى. وكان شعرهم صدىً لهذه

المظاهر وانعكاسًا لها. وكان من أبرز هذه المظاهر الحنين وما يرافقه من الشعور بالغربة والضيق والانكسار.

وبما أنّ الحنين باب قديم في الشعر العربي، بدأ منذ العصر الجاهلي مروراً بعصر صدر الإسلام والعصر الأموي، فقد جاء هذا البحث ليعالج ما طرأ على شعر الحنين في هذا العصر من تطور وتجديد في موضوعاته وبنائه، وذلك في ظلِّ ما شهده هذا العصر من أحداث تاريخية وسياسية، وازدهار في الحضارة، وتمصير للأمصار، وبناء للمدن. فقد خاض شعراؤه تجربة الغربة والنزوح عن الوطن، سواء أكانت الغربة لدواعٍ سياسية أم اقتصادية أم اجتماعية، وعبّروا بأشعار صادقة عن حنينهم إلى أهلهم وأوطانهم.

أمّا الدراسات السابقة التي تناولت موضوع الحنين، فمنها ما تناول موضوع الحنين في بيئات وعصور سابقة، ولعلَّ أهمها دراسة محمد حوّر بعنوان: (الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي) الذي عالج فيه ظاهرة الحنين إلى الوطن منذ العصر الجاهلي حتى نهاية العصر الأموي، من خلال تحليل النصوص الشعرية وتفسيرها، والوقوف على ظاهرة الحنين والغربة فيها، وإبراز أهم السمات الفنية في شعر الحنين إلى الوطن. ودراسة صاحب خليل إبراهيم بعنوان: (الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام) تناول فيها موضوع الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام بالدراسة الموضوعية والفنية، مستقصياً بواعثها ونتائجها باستقراء الدواوين الشعرية للكشف عن موضع الغربة فيها. ودراسة وهران محمود حبيب بعنوان (الحنين في شعر صدر الإسلام) تناولت فيها ظاهرة الحنين بمفهومها الواسع الذي يشمل الحنين إلى جميع المفتقدات التي افتقدها الشاعر في عصر صدر الإسلام، والتي من ضمنها الحنين إلى الوطن، من خلال قراءة النصوص وتحليلها وتفسيرها.

ومن هذه الدّراسات ما كان عامّاً، تناول موضوع الحنين في شعر العصر العباسي الأول بشكل عامّ، فلم تعنَ به مثلما لم تعنَ بغيره من العصور، ولعلَّ أهمها دراسة يحيى الجبوري بعنوان: (الحنين والغربة في الشعر العربي: الحنين إلى الأوطان) عرض فيه ظاهرة الحنين والغربة من العصر الجاهلي حتى العصر الحديث، وهو عرض عام للظواهر وأبرز أعلامها.

أمّا مصادر البحث ومراجعه فقد عانيت الكثير عند جمع مادة البحث وتقسيمها؛ وذلك لتعدّد المصادر، وكثرة الشعراء المشهورين والمغمورين في العصر العباسي الأول، وقد تنوّعت المصادر من الدواوين والمجاميع الشعرية، وكتب الأدب، والمعاجم الجغرافية واللغوية.

أمّا منهج البحث الذي اعتمدته، فقد اقتضت طبيعة الموضوع تعدد المناهج التي تطلَّبتها هذه الدراسة. فاستخدمت المنهج الفني وأنا أحلل القصائد، وأستنطق إيحاءات الصور، واستقصي الوسائل الفنية. والمنهج الأسلوبي عند الحديث عن الأساليب الإنشائية والأدوات والتكرار. والمنهج التاريخي في التأريخ للأخبار والقضايا. والمنهج النفسي حين ألاحظ تأثيره في النصوص الشعرية التي أعالجها.

وقد جاء البحث في مقدمة وتمهيد وثلاثة فصول وخاتمة. وتبين المقدمة أهمية البحث، وتظهر مكانته بين الدراسات الأدبية التي تناولت ظاهرة الحنين، ومصادره، ومنهجه، وخطواته. وتحدثت في التمهيد عن مفهوم الحنين لغةً واصطلاحاً، وعن مؤلّفات الأدباء القدماء في الحنين، وعن حال الحنين في الشعر قبل العصر العباسي.

أمّا الفصل الأول، وعنوانه الحنين في شعر العصر العباسي الأول، فقد جاء في أربعة مباحث: تناولت في المبحث الأول الحنين إلى البادية، وتناولت في المبحث الثاني الحنين إلى المدن والحواضر، وتناولت في المبحث الثالث حنين الفاتحين الجدد، وتناولت في المبحث الرابع حنين المرأة.

أمّا الفصل الثاني، وعنوانه الغربة في شعر العصر العباسي الأول، فقد ناقشت فيه علاقة الحنين بالغربة، فتحدّثت عن مفهوم الغربة، وعلاقتها بالحنين، وأوردت بعض الأقوال والأمثال والحكم التي تبين أثر الغربة على الإنسان الغريب، ثم عرضت فيه لغربة شعراء العصر العباسي الأول.

أمّا الفصل الثالث، وعنوانه الوسائل الفنية في شعر الحنين، فناقشت فيه ما اعتمد عليه شعراء الحنين في العصر العباسي الأول من عناصر الطبيعة وغيرها للتعبير عن تجربة الحنين والغربة، وكانت هذه الوسائل مستمدّة من الشعراء الأوائل في العصرين الجاهلي والإسلامي، وهي: الإبل، والحمام، والرياح، والبروق، والنجوم، والنخيل، والبكاء والدموع، والطيف والخيال.

أمّا الخاتمة فقد تضمّنت أهمّ النتائج التي توصّلت إليها في هذا البحث.

وأخيراً أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد بذلت في هذا البحث جهداً مخلصاً، يمكن الإشارة إليه بين الجهود التي تبذل في سبيل دراسة التراث الأدبي، فإن وُفِّقت فهو من فضل الله ولطفه، وإن قصَّرت في جانب من جوانب البحث فعذري أنّني اجتهدت، ولكلّ مجتهد نصيب.

والله ولي التوفيق.

تمهيد:

أولاً: مفهوم الحنين

ثانياً: الحنين في التأليف

ثالثاً: الحنين في الشعر قبل العصر العباسي

مفهوم الحنين

الحنين مفهوم يعني الشَّوقَ وتَوَقانَ النَّفسِ، والمعنيان متقاربان.[١] وهو شــوقٌ ممــزوجٌ برقّةٍ وكلفٍ وتذكّرٍ يهيجُ الباعثَ.[٢] وهو من آثار الحبِّ وموجباته.[٣] أمّا في الاصطلاح: فهــو حزنٌ وذبولٌ يغشيان عدداً من النّاس في حالة ابتعادهم عن الوطن، ويفجّران في نفس الفنّان أو الشاعر إنتاجاً وجدانياً رهيفاً.[٤] أو هو رحلةٌ في الزَّمان وعودة إلى الوراء لمعايــشة الماضــي شعراً، واسترجاعه واستحضاره على مستوى المكان والأهل والوقائع.[٥]

والحنين غناء رقيق شجي ينبع من القلب يتهادى على الشفاه، ممتزجاً بعاطفة قوية تعبر عن اللهفة الملتهبة لكل ما يثير كوامن النفس وما يعتريها من ذكريات الماضي التي يحيا الإنسان على جذاها.[٦]

والحنين عند العرب علامة من علامات الوفاء والإخلاص، فمما جاء عن الحنــين فــي الأقوال المأثورة: إذا شئت أن تعرف وفاء الرجل، وحسن عهده، وكرم أخلاقه، وطهارة مولده، فانظر إلى حنينه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكائه على ما مضى من زمانه.[٧]

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، مادة (حنن).

(٢) الأنطاكي، تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق، تحقيق محمد ألتونجي، ١٩٩٣م، عالم الكتب ، بيــروت، ٥٩/١.

(٣) ابن قيم الجوزية، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تعليق عبد الرزاق المهــدي، دار الخيــر، بيــروت، ١٩٩٦م. ص٤١.

(٤) عبد النور، المعجم الأدبي، ١٩٧٩م، دار العلم للملايين، بيروت، ص١٠٠.

(٥) طحطح، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ١٩٩٣م، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ص٣٥.

(٦) إبراهيم، الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام، رسالة ماجستير، ١٩٨٨م، الجامعة المستنــصرية، بغداد، ص١٠.

(٧) الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ٢٠٠٠م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٦١١/٢.

وهو عند الحكماء دليل على كرم الأصل، فقد قالوا: الحَنين من رِقَّة القلب، ورقّة القلب من الرِّعاية، والرِّعاية من الرَّحمة، والرَّحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرِّشدة، وطهارة الرِّشدة من كرم المحتد[١]. وهو عندهم كذلك من أمارات العقل والرّشد، قـــالوا: حنـــين الرجل إلى وطنه من علامات الرُّشد[٢]. وقالوا: من أمارات العاقـــل بـــرّه لإخوانـــه، وحنينـــه لأوطانه، ومداراته لأهل زمانه[٣]. وهو عند العجم من علامات الرشد، فقد قالوا: مـــن علامـــة الرّشد أن تكون النفس إلى مولدها مشتاقة، وإلى مسقط رأسها توّاقة[٤].

ولعلّ هذه الأقوال السابقة، تظهر ما للحنين من قيمة مهمّة عند العرب وغيرهم، وما له من دلالات تعكس كرم الإنسان وأصالته، ورشده ووفاءه.

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، دار الجيل، بيروت، ٢/ ٣٨٦. وابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، تحقيق جليل العطية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، عالم الكتب، بيـــروت، ص٤٠. والعسكري، ديوان المعاني، ١٩٣٣م، مكتبة القدسي، القاهرة، ٢/ ١٨٨.

(٢) العسكري، ديوان المعاني، ٢/ ١٨٧.

(٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢/ ٢٨٩. وابن المرزبان، الحنين إلى الأوطـــان، ص٤٠. والعـــسكري، ديـــوان المعاني، ٢/ ١٨٧.

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢/ ٢٨٥. والجاحظ، المحاسن والأضداد، شـــرح يوســـف فرحـــات، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، دار الجيل، بيروت، ص١٠٣. والبيهقي، المحاسن والمساوئ، تحقيق محمد سويد، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، دار إحياء العلوم، بيروت، ص٣٤٩. والأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيـــق إبـــراهيم صـــالح، ١٩٩٩م، دار صادر، بيروت، ٢/ ٢٦٣.

الحنين في التأليف

نظراً لما لأدب الحنين، من كثرة، وجودة، وأهمية في الأدب العربي بصورة خاصة، والآداب الإنسانية بصورة عامة؛ فقد وُجِدَ كثيرٌ من المؤلفين والكتاب، ألفوا كتباً في الحنين أو أفردوا فصولاً أو أبواباً في مؤلفاتهم تختص بالحنين[١]. إلا أن السمة الغالبة فيها ارتباط الحنين بالوطن.

ومنذ بداية عصر التأليف في القرن الثالث الهجري كان الجاحظ (ت٢٥٥هـ) أوّل من فطن إلى هذه الظاهرة؛ فكتب رسالةً عنوانها (الحنين إلى الأوطان)[٢]، نقل فيها طرفاً من أخبار الأنبياء والملوك والأعراب، وبعضاً من أقوال الفلاسفة والحكماء، يتبعها بعض الأشعار التي تؤكد عشق الإنسان لوطنه وحنينه إليه. ولم يكتف الجاحظ برسالته تلك، بل عاد ليفرد فصلاً في كتابه: (المحاسن والأضداد) في: (محاسن حب الوطن)[٣]، عرض فيه حنين الإنسان إلى وطنه.

وعقد أبو بكر الأصبهاني (ت٢٩٧هـ) في كتابه: (الزهرة)، أبواباً عديدة عالج فيها موضوع الحنين والشوق وهي[٤]: (من راعه الفراق ملكه الاشتياق)، و(من غاب قرينه كثر حنينه)، و(من لوامع البروق أنس للمستوحش المشوق)، و(في تلهب النيران أنس للمدنف الحيران)، و(في نوح الحمام أنس للمنفرد المستهام)، و(في حنين البعير المفارق أنس لكل صبّ وامق).

---

(١) انظر: حوّر، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ط٢، ١٩٨٩م، دار القلم، دبي، ص٢٠٣- ٢٠٥.

(٢) انظر: الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢/٣٧٩- ٤١٢.

(٣) انظر: الجاحظ، المحاسن والأضداد، ص١٠٢- ١٠٨.

(٤) انظر: الأصبهاني، الزهرة، تحقيق إبراهيم السامرائي، ط٢، ١٩٨٥م، مكتبة المنار، الزرقاء.

وأفرد البيهقي (ت٣٢٠هـ) في كتابه: (المحاسن والمساوئ) باباً في (محاسن الحنين إلى الوطن)[١]، نقل فيه أقوالاً تستحسن حنين الإنسان إلى وطنه.

ويؤلف ابن المرزبان (ت ٣٣٠هـ تقريباً) كتاباً اسمه: (الحنين إلى الوطن)[٢]، يعرض فيه شوق الإنسان إلى وطنه ودياره. وكتاباً آخر اسمه: (الشوق والفراق)[٣]، يعرض فيه شوق الإنسان لأهله وأحبته، وقسوة فراقه لهم، وفي الكتاب تتردد عناوين مختلفة من مثل: (تمني اللقاء)، و(وصف الشوق)، و(تذكّر العهد والأيام).

وأبو الفرج الأصبهاني (ت٣٥٦هـ) يؤلف كتاباً عنوانه (أدب الغرباء)[٤]، جمع فيه أخبار الغرباء وأشعارهم، مما سمعه أو شاهده أو نقل إليه، ومما كان يكتبه الغرباء على الجدران، أو يبوحون به تعبيراً عن حنينهم إلى بلدانهم وأهلهم.

وخصص أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) في كتابه: (ديوان المعاني) أول الباب الثاني عشر من كتاب المبالغة في (القول في الحنين إلى الأوطان)[٥]، عرض فيه فضل الحنين إلى الوطن بما نقله من أشعار وأقوال وأخبار.

وذكر الشريف المرتضى (ت٤٣٦هـ) في أماليه (غرر الفوائد ودرر القلائد)[٦] طائفةً من أقوال الشعراء في الأوطان والحنين إليها.

---

(١) انظر: البيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٣٤٢- ٣٤٤.

(٢) انظر: ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان.

(٣) انظر: ابن المرزبان، الشوق والفراق، تحقيق جليل العطية، ١٩٨٨م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

(٤) انظر: الأصبهاني، أدب الغرباء، تحقيق صلاح الدين المنجد، ١٩٧٢م، دار الكتاب الجديد، بيروت.

(٥) انظر: العسكري، ديوان المعاني، ٢/١٨٦- ١٩٤.

(٦) انظر: الشريف المرتضى، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٥٤م، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ٢/١٥٠- ١٥٣.

وأفرد الحصري (ت٤٥٣هـ) في كتابه (زهر الآداب وثمر الألباب) باباً في: (الحنين إلى الأوطان)(١)، ذكر فيه ألفاظاً لأهل العصر في ذكر الوطن، وبعض أقوال الشعراء في حب الوطن والحنين إليه.

وخصص الراغب الأصفهاني (ت٥٠٢هـ) في كتابه: (محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء) القسم الرابع (في الشوق والحنين والنحول)(٢)، إذ تناول الحنين بمفهومٍ أوسع من سابقيه، دون أن يربطه بالوطن أو المكان.

وألّف أسامة بن منقذ (ت٥٨٤هـ) كتاباً عنوانه (المنازل والديار)(٣)، عرض فيه موضوع البكاء على المنازل والديار العافية والأطلال الدارسة، وذلك من خلال ما اختاره من شعر الجاهليين ومن بعدهم حتى أيامه، وما كان ذلك إلا حنيناً إليها وإلى ساكنيها.

وعقد الغزولي (ت٨١٥هـ) في كتابه: (مطالع البدور في منازل السرور) باباً في: (الحنين إلى الأوطان وتذكر من بها من القطان)(٤)، نقل فيه من الأشعار والأخبار ما يبين شوق الغريب إلى وطنه وتلهفه على أهله وإخوانه.

وخصص الأبشيهي (ت٨٥٤هـ) في كتابه: (المستطرف في كل فن مستظرف) الباب الخمسين: (فيما جاء في الأسفار والاغتراب، وما قيل في الوداع والفراق، والحث على ترك

---

(١) انظر: الحصري، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق صلاح الدين الهواري، ٢٠٠١م، المكتبة العصرية، بيروت، ٣/١١٤- ١٢٠.

(٢) انظر: الأصفهاني، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تحقيق إبراهيم زيدان، ط٢، ١٩٨٦م، دار الجيل، بيروت، ص٢٩٠- ٢٩٨.

(٣) انظر: ابن منقذ، المنازل والديار، تحقيق مصطفى حجازي، ١٩٦٨م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.

(٤) انظر: الغزولي، مطالع البدور في منازل السرور، ٢/٦١١- ٦٢٣.

الإقامة بدار الهوان، وحب الوطن والحنين إليه) [١]، نقل فيه طرفاً من الآيات والأحاديث والآثار، وأخبار العرب وأشعارهم، مما يؤكد عشق الإنسان لوطنه وحنينه إليه.

ذلك مما وقفنا عليه من كتب مطبوعة، ناهيك عما كان مخطوطاً أو ما ذكر في كتب الفهارس مما ضاع ولم يصل إلينا، من ذلك:

١- حب الوطن، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ)[٢].

٢- الشوق إلى الأوطان، لأبي حاتم السجستاني (ت٢٥٥هـ)[٣].

٣- حب الأوطان، لموسى بن عيسى الكسروي (من علماء القرن الثالث الهجري)[٤].

٤- حب الأوطان، لأبي الفضل أحمد بن أبي طاهر[٥].

٥- الحنين إلى الأوطان، لأبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق الوشاء (ت٣٢٥هـ)[٦].

٦- الحنين إلى الأوطان، للقاضي الشريف أبي طاهر الحلبي[٧].

٧- حنين الإبل إلى الأوطان، لربيعة البصري[٨].

٨- المناهل والأعطان والحنين إلى الأوطان، للحسن ين عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي (ت٣٦٠هـ)[٩].

---

(١) انظر: الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٢/٢٥٠- ٢٦٧.

(٢) الإشبيلي، فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق إبراهيم الأبياري، ١٩٨٩م، دار الكتاب المصري، القاهرة، ٤٩٩/٢.

(٣) ابن النديم، الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، ١٩٩٤م، دار المعرفة، بيروت، ص٨٢.

(٤) المصدر السابق، ص١٦٠.

(٥) الإشبيلي، فهرسة ابن خير الإشبيلي، ص٥٥٢.

(٦) ابن النديم، الفهرست، ص١١٣.

(٧) الحموي، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٧٨/١.

(٨) ابن النديم، الفهرست، ص٧٢.

(٩) المصدر السابق، ص١٨٩.

٩- الرسالة في الحنين إلــى الأوطــان، لأبــي حيــان التوحيــدي علــي بــن محمــد بــن العباس(ت٤٠٠هـ)(١).

١٠- النزوع إلى الأوطان، لأبي سعد عبد الكريم بن محمد السمعاني (ت٥٦٢هـ)(٢).

وبعد؛ فقد حظيت ظاهرة الحنين باهتمام الأدباء قديماً، فكان لها حيِّزٌ كبيرٌ في مؤلفاتهم وكتاباتهم؛ وذلك لما حملته من المعاني العظيمة؛ وما امتازت به من صدق العاطفة والشعور. وفي ما عرضت سابقاً ما يؤكد انفراد الظاهرة وخصوصيتها في تراثنا الأدبي، فقد شكّلت غرضاً شعرياً مستقلاً بحد ذاته. ولعل مما يلاحظ في معظم هذه المؤلّفات هو ارتباط الحنين بالوطن والمكان.

---

(١) الحموي، معجم الأدباء إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، ١٩٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٨٩/٤.

(٢) السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي، د.ت، منشورات عيسى البــابلي الحلبــي، ١٨٣/٧.

الحنين في الشعر قبل العصر العباسي

اتسمت شبه الجزيرة العربية، منذ أقدم العصور، بمميزات خاصة، منها: تلك الصحاري الشاسعة، والأراضي الجرداء، ذات المطر اليسير، والينابيع القليلة. وقد انعكس ذلك على أسلوب الحياة فيها، فصارت تفرض على سكانها الترحال والتنقل المستمر من مكان إلى آخر؛ بحثاً عن مصادر الماء والكلأ؛ وكان هذا يترك في نفوسهم حزناً وألماً على ذكريات مضت في هذه المواضع من شبه الجزيرة العربية.(١)

ومن هنا دأب الشعراء الجاهليون على استهلال قصائدهم بالوقوف على هذه الدّيار العافية، والبكاء عليها، وذلك ما عُرِف بشعر الأطلال أو المقدّمات الطللية، وقد صوّروا بذلك انفعالاتهم وعواطفهم تجاه هذه الدّيار التي أقاموا فيها مدّة من الزمن، ثمّ غادروها مضطرين، فكانوا إذا مرّوا بها تذكروها، أو تذكروا أهلها وسكانها، وأيامهم الفائتة فيها.

إنّ نظرة متعمقة في شعر الأطلال والبكاء على الدِّمن تكشف أنّ هذا الشعر في جملته غناء حزين لفراق الوطن وأهله، ومحوره الحنين إلى الماضي، والتعبير عن أصدائه وذكرياته العالقة في النفس الإنسانية، التي قد ترجع إلى مدارج الطفولة ومعاهد الشباب. والمتتبع للقصائد الجاهلية المشهورة (المعلّقات) يجدها تزخر بذلك، فهذا امرؤ القيس (٨٠ ق.هـ) يفتتح معلّقته بالوقوف على الأطلال، والبكاء على الذكريات، يقول(٢):

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ ... بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُول وَحَوْمَلِ
فَتُوضِحَ فالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُها ... لِمَا نسجتْها مِنْ جَنُوبٍ وشَمْأَلِ

---

(١) انظر: حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص٥١– ٥٣.

(٢) امرؤ القيس، ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، د.ت، دار المعارف، القاهرة، ص٨.

وقد أشار امرؤ القيس، في بعض أبياته، إلى وجود من سبقه إلى ذلك، وهو ابن خـذام، إلاّ أنه لم يصلنا شيء من أخباره أو أشعاره، ويعدّ ذلك دليلاً على عراقة الحنين وقدمه في أدبنا العربي، يقول(١):

عُوْجَا على الطَّلَلِ المُحِيلِ لَعَلَّنا نَبْكي الدِّيارَ كَمَا بكى ابنُ خِذامِ

لقد كان الشاعر العربي القديم ابن أرضه الصحراوية الجافية، ولكنّها الأثيرة لديه، يخرج منها ويرتدّ إليها، مهاده ومنتجعه ومرجعه، ألفها وأحبها، وطناً وأهلاً وأحبّةً، فإذا فارق ذلك وبَعُد عنه، تشوّق له، وحنَّ إليه. كان قانعاً بها، مطمئناً فيها، على الرّغم من خشونة العيش، وقلّة الخير، فهذا شاعر من البادية يعبّر عن حبّه لوطنه، مع أنّها أرض قفراء موحشة، لا يلذ العيش فيها، يقول(٢):

بِلادٌ أَلِفْناها على كُلِّ حالةٍ وقد يُؤْلَفُ الشَّيْءُ الَّذي لَيْسَ بالحَسَنْ
ونَسْتَعْذِبُ الأَرْضَ الَّتي لا هَوا بِها ولا ماؤها عَذْبٌ ولكنَّها وَطَنْ

وبمجيء الإسلام، والجهر بالدّعوة الإسلامية، هاجر المسلمون من مكة إلى المدينة؛ هرباً من أذى المشركين، وحفاظاً على دينهم، ولم يكن خروجهم من مكّة سهلاً عليهم ولا ميسوراً عندهم، إنّما هو فراق الوطن والأهل والصديق؛ ولذلك سيطر الحنين على مشاعرهم، فلم

---

(١) امرؤ القيس، ديوانه، ص١١٤.

(٢) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٢/٢٦٤.

يستطيعوا إخفاءه، وستره في نفوسهم، فهذا بلال الحبشي (٢٠هـ) – رضي الله عنه – يغلبه الشوق والحنين إلى مكة، بمياهها ونباتها، وجبالها ووديانها، قال(١):

أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيْتَنَّ لَيْلَةً بفَخٍّ وَحَوْلِي إِذْخِرٌ وَجَلِيْلُ

وَهَلْ أَرِدَنْ يوماً مِياهَ مَجَنَّةٍ وَهَلْ يبدونَ لِي شامةٌ وطفيلُ

ولمّا انطلقت جيوش الفتوح الإسلامية من قلب شبه الجزيرة العربية؛ تنشر راية الإسلام، وجد المجاهدون أنفسهم في بيئات جديدة، تختلف عن البيئة التي نشأوا فيها، واعتادوها، وكانوا كلّما أوغلوا في البلاد النّائية زاد حنينهم إلى أوطانهم. ومما كان يخفف من هذا الحنين شعورهم بأنّهم يضربون في سبيل الله. وإذا ما طغى ذلك على مشاعر الحنين إلى الأهل والوطن، انقلب شوقاً إلى الجنّة، وتطلّعاً إلى الشهادة. ومع ذلك فقد تدفّق شعر الحنين على ألسنتهم، وشاعت فيه تلك النّغمات الشّجية المؤثرة في النفس. فمن ذلك قول بعض الأعراب يشكو الغربة، ويبكي شوقاً وحنيناً إلى أهله ووطنه(٢):

أَقُمْرِيَّةَ الوادي الَّتي خانَ إِلْفَها مِنَ الدَّهْرِ أَحْداثٌ أَتَتْ وخطوبُ

تعالي أُطارِحْكِ البكاءَ فإِنَّنا كلانا بمَرْوِ الشَّاهِجانِ غريبُ

ولم يكن من السّهل أنْ يألف العرب هذه الأمصار الجديدة، بلغاتها الغريبة، وبيئاتها المختلفة، حيث البرد الشديد، والأمطار الغزيرة والثلوج؛ فازداد إحساسهم بالغربة وشعروا بالحنين إلى أوطانهم. وهذا ما وصفه أعرابي في قوله(٣):

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ٥/٧١.

(٢) المصدر السابق، ٥/١٣٤.

(٣) السابق نفسه، ٥/٤٧٦.

وكيـــــف أُجيـــــبُ داعِـــيَكم ودونــــــي جِبـــــالُ الـــــثَّلْجِ مُـــــشْرِفَةُ الرِّعـــــانِ
بـــــلادٌ شَـــــكْلُها مِـــــنْ غَيـــرِ شَـــكْلي وأَلْـــــــــسُنُها مُخالفـــــــةٌ لِـــــــــساني

وإنْ كان الفتح قد شغلهم عن دخائل نفوسهم ونوازعها، وأذهلهم ما شاهدوه في الأمصار المفتوحة عن الالتفات إلى ما كان يضطرب في تلك النفوس، من شوق خفي وحنـين لا يكـاد يبين. فإذا طال الفتح، وتوالت الشهور، وزالت فرحة النصر، ودهشة ما شاهدوه، وفـرغ كـلٌّ لنفسه فسمع نجواها، واستبانت له نوازعها، حتى طغى ما فيها من شوق وحنين على كـلِّ مـا عداه... أصبح تجاهل ذلك ومداراته أمراً مستحيلاً، وأصبح التماس السلوى أمراً فـوق طاقـة البشر. فإذا بالفاتحين العظام الذين جاؤوا من شبه الجزيرة العربية، ومن قسوة الحياة فيها، أرقُّ من الماء وألطف من النسيم، يحنّون إليها ويحلمون بالعودة لها. فهذا مالك بن الرّيب (ت٦٠ هـ) يخرج غازياً في سبيل الله – بعد أنْ كان لصّاً فاتكاً– فترميه الأقدار في خراسان، وهناك تدركه المنية، ويصبح الموت حائلاً بينه وبين وطنه، ويسيطر الحنين إلى أهله ودياره على مـشاعره، فيتمنّى أن يبيت لليلة بوادي الغضا، قال(١):

أَلاَ لَيْـــتَ شِـــعْري هَـــلْ أَبيـــتَنَّ لَيلَـــةً بِجَنْبِ الغَضَا أُزْجِـي القِـلاصَ النَّواجِيـا
فَلَيْتَ الغَضَا لَمْ يَقْطَـعِ الرَّكْـبُ عرضَـهُ ولَيْـتَ الغَـضَا ماشَـى الرِّكَـابَ لياليـا
لَقَدْ كَانَ في أَهْلِ الغَضَا لَـوْ دَنَـا الغَـضَا مَـــزَارٌ ولَكِــنَّ الغَــضَا لَــيْسَ دَانِيَـــا

(١) القرشي، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق محمد علي الهاشمي، ط٢، ١٩٨٦م، دار القلم، دمشق، ٧٥٩/٢– ٧٦٠.

ومع كثرة شعر الحنين في أدبنا القديم، فإنّ المتتبع له لابدَّ أنْ ينتهي إلى أنّ معظم هــذا الشعر يدور حول الحنين إلى نجد. وهذا ما أدركه ياقوت الحمــوي صــاحب معجــم البلــدان، فقال(١):(ولم يذكر الشعراء موضعاً أكثر مما ذكروا نجداً وتشوقوا إليها من العرب المتضمِّرة).

وقد خصَّ الله نجداً بجمال الصحراء الفريد في رياضها وأزهارها وواحاتها ومرابعهــا وغزلانها ومهاها. فلا عجب أنْ يحنّ إليها الشعراء، ويتغنّوا بذكرها وبطيب هوائهــا وترابهــا، فهذا قيس بن الملوَّح (ت٦٩هـ) يحنّ إلى نجد مع أنّه حجازي، قال(٢):

أَحِــنُّ إِلــى نَجْــدٍ فَيَــا لَيْــتَ أَنَّنِــي ... سُقِيتُ عَلَى سُــلْوَانَةٍ مِــنْ هَــوَى نَجْــدِ
أَلاَ حَبَّـــذَا نَجْـــدٌ وَطِيْـــبُ تُرَابِـــهِ ... وَأَرْوَاحُــهُ إِنْ كَــانَ نَجْــدٌ عَلَــى الْعَهْــدِ

والحجاز موئل الشعر العربي، ودوحته الباسقة، وهي قلب شبه الجزيرة العربية، ورمز لها كلها، فكثر ترديدها على ألسنة الشعراء، والحنين إليها، من ذلك قول قيس بن الملوَّح(٣):

أَحِــنُّ إِلــى أَرْضِ الْحِجَــازِ وَحَــاجَتِي ... خِيَــامٌ بِنَجْــدٍ دُونَهَــا الطَّــرْفُ يَقْــصُرُ
وَمَا نَظَــرِي مِــنْ نَحْــوِ نَجْــدٍ بِنَــافِعِي ... أَجَـــلْ لا وَلَكِنِّـــي عَلَـــى ذاكَ أَنْظُـــرُ

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ٥/٣٠٤.

(٢) المجنون، ديوان مجنون ليلى، جمع أبو بكر الوالبي، تحقيق جلال الــدين الحلبــي، ١٩٩٤م، دار الــنجم، بيروت، ص٤٧.

(٣) المصدر السابق، ص٢٢.

الفصل الأول:

الحنين في شعر العصر العباسي الأول.

المبحث الأول: الحنين إلى البادِيَة.

المبحث الثاني: الحنين إلى المُدُن والحَواضر.

أولاً: الحنين إلى بَغْدَاد.

ثانياً: الحنين إلى البَصْرَة.

ثالثاً: الحنين إلى دِمَشْق.

رابعاً: الحنين إلى المَدِيْنَة المُنَوَّرَة.

خامساً: الحنين إلى اليَمَامَة.

سادساً: الحنين إلى غَزَّة.

المبحث الثالث: الحنين في شعر الفاتحين الجدد.

المبحث الرابع: الحنين في شعر المرأة.

المبحث الأول:

الحنين إلى البادِيَة

يختلف وطن البَدْو عن وطن الحَضَر، باختلاف ظروف الحياة في البادِيَة عن ظـروف الحياة في الحاضِرَة، فقد جاء في لسان العرب: البَدْوُ والبادِيَةُ خلاف الحَـضَر، والنـسب إليهـا بدويّ، وجمعها بَوَادٍ، وبدا القوم بَدْوَاً أي خرجوا إلى باديتهم، وقيـل للباديـة باديـة لبروزهـا وظهورها، والبادية اسم للأرض التي لا حضر فيها، وإذا خرج النّاس من الحَضَر إلى المراعي في الصَّحاري قيل قد بَدَوْا، والاسم البَدْوُ، والبادي هو الذي يكون في البادية ومسكنه المضارب والخيام، وهو غير مقيم في موضعه(١). وأمّا الحَضَر والحاضِرَة فخلاف البادية، وهـي المـدن والقرى والأرْياف، سمّيت بذلك؛ لأنّ أهلها حَضَرُوا الأمصار ومساكن الدِّيار، التي يكون لهم بها قَرار، والحاضِر هو المُقِيم في المُدُن والقُرَى والأرْياف(٢).

إذن فالبدو هم قطان الصحاري، يقيمون في المضارب والخيام، ويتخذون بيـوتهم مـن الأصواف والأوبار والشَّعر، ويعتمدون في حياتهم على الصيد ورعي الأغنـام، علـى عكـس الحضر الذين يقيمون في المدن والقرى والأرياف، ويتخذون بيوتهم من الآطـام والحـصون، ويعتمدون في حياتهم على الزراعة والتجارة. وقد كان لذلك أثر واضح على نمط الحياة عند كلّ منهما، فالبدو كثيرو التنقل والترحال، يتتبعون مساقط الغيث ومنابت الكلأ، أمّـا الحـضر فهـم أصحاب مكث واستقرار. ولعلّ هذا الاختلاف الكبير بين نمط الحياة في البادية ونمط الحياة في الحاضرة، له أثرٌ واضح على حنين شعرائهم، والألفاظ التي عبّروا بها عن حنينهم، والمعـاني التي تطرّقوا إليها. ولذلك – أيضاً – أثر ملموس على حرارة العاطفة وصدقها.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (بدا).

(٢) المصدر السابق، مادة (حضر).

ويُعَدُّ الجاحظ (ت٢٥٥هـ) أول من فطن إلى ارتباط البدوي والحضري كلّ ببيئته وأرضه، حين فصل بين حنين كلٍّ منهما إلى وطنه، فقال[١]: (وترى الأعراب تحنُّ إلى البلد الجدْب، والمحلِّ القفر، والحجر الصَّلْد، وتستوخم الرِّيف، حتَّى قال بعضهم:

أَتَجلِينَ في الْجالِينَ أَمْ تَتَصَبَّرِي … على ضِيْقِ عَيْشٍ والْكَرِيمُ صَبُوْرُ

فبالْمِصْرِ بُرغُوثٌ وحُمَّى وحَصْبَةٌ … ومُومٌ وطاعُونٌ وكُلٌّ شُرُوْرُ[٢]

وبالْبِيْدِ جُوْعٌ لا يَزالُ كأَنَّهُ … رُكامٌ بأَطْرافِ الإِكامِ يَمُوْرُ

وترى الحضريَّ يُولد بأرض وباءٍ وموتانٍ وقلَّة خِصْب، فإذا وقع ببلادٍ أريف من بلاده، وجنابٍ أخصب من جنابه، واستفاد غنىً، حنَّ إلى وطنه ومستقرِّه).

وقد نقل الجاحظ في رسالة الحنين إلى الأوطان، أخباراً عديدةً تدلّ على تعلّق البدوي بوطنه، وقناعته به، على الرّغم من قسوة الحياة وشظف العيش، في تلك الصّحراء القاحلة، وتحت الشمس الحارقة، فعندما قيل لأعرابيٍّ[٣]: (كيف تصنع في البادية إذا اشتدَّ القيظُ وانتعل كلُّ شيء ظلَّه؟ قال: وهل العيش إلا ذاك، يمشي أحُدنا ميلاً فيرفضُّ عرقاً، ثم ينصِب عصاه ويلقي عليها كساءه، ويجلس في فيئه يكتال الرِّيح، فكأنّه في إيوان كسرى!).

وقيل لأعرابيّ[٤]: (ما أصبرَكم على البدو؟ قال: كيف لا يصبر مَن وِطاؤه الأرض، وغِطاؤه السماء، وطعامُه الشَّمس، وشرابه الرّيح! والله لقد خرجنا في إثر قومٍ قد تقدَّمونا

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٣٨٨/٢ .

(٢) موم: الموم هو الجدري.

(٣) المصدر السابق، ٢٩٢/٢، ٢٩٣. والمحاسن والأضداد، ص١٠٣. والبيهقي، المحاسن والمساوئ، ٣٤٤. والعسكري، ديوان المعاني، ١٨٩/٢.

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢٩٣/٢.

بمراحلَ ونحن حُفاة، والشَّمس في قُلَّة السماء، وحيث انتعل كلُّ شيءٍ ظِلَّه، وإنَّهم لأسوأُ حالاً منّا، وإنّ مهادهم للعَفَر، وإنّ وِسادهم للحَجَر، وإنّ شِعارهم للهواء، وإنّ دِثارهم للخَوَاء).

فهذه الأخبار تؤكّد حب البدوي لوطنه، وتعلقه الشديد به، وتُصَوِّر وفاءه له واعتزازه به، رغم ظروفه القاسية، وهي كذلك تعبير عن حنينهم إليه، وارتباطهم به.

وبما أنّ البدو أسبق من الحضر وأقدم منهم، وبما أنّ الحياة بدوية في أصلها، حضرية في فرعها وتطوّرها، (فإنّه من الطبيعي أن يكون شعراء العصر الجاهلي كلّهم – أو جلّهم – من البدو، وقلّما وُجِدَ شاعرٌ حضريّ بينهم، وهذا عَكْس ما صار إليه الشعراء في العصور المتأخّرة عن العصر الجاهلي، فكلّما تقدم الزمن، كانت القلّة في شعراء البدو، والكثرة في شعراء الحاضرة؛ وذلك نتيجة لتطوّر الحياة، وتعمير البلدان، وبناء المدن، والاستقرار فيها، فقد بنيت البصرة والكوفة في عصر صدر الإسلام، وازدهرت مكّة والمدينة في الحقبة ذاتها. وازدهرت دمشق في العصر الأموي. وبنيت بغداد وسامرّاء في العصر العباسي، وازدهرت الحضارة في العصر نفسه. وإذا بالآية تنقلب في هذا العصر، إذ أصبح كلّ الشعراء – أو جلّهم – من الحضر، وقلّما وُجِدَ شاعرٌ بدويّ، وإنّ وُجِدَ فقد تحضّر).(١)

وبرغم تطور الحضارة في العصر العباسي، والهجرة الواسعة إلى المدن والحواضر، وتناقص أعداد الشعراء في البادية، فإنّ حنينهم إلى باديتهم، لا يزال مستمرّاً في عدد من القصائد التي تظهر فيها روح الشاعر العربي البدوي الأصيل، الذي يحبّ وطنه ويعتزّ به، متّبعين أسلوب شعراء الحنين الأوائل، في العصرين: الجاهلي والإسلامي، في صورهم ووسائلهم،

---

(١) انظر: حوّر، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص٤٤، ٤٥.

وألفاظهم ومعانيهم. ولم يكن فراقهم لديارهم، في هذا العصر، بحثاً عن مصادر الماء والكلأ فقط، بل إنّهم كثيراً ما يغادرونها على كره منهم إلى المدن والحواضر لسبب ما، فيضيقون بحياة المدينة، ويحسّون بالحزن والانكسار. فلم يكن سهلاً عليهم أنْ يألفوا هذه الحياة الحضرية الغريبة المستحدثة، فما كان منهم إلا أنْ حنّوا إلى أوطانهم، وإلى تلك الحياة البدوية البسيطة، وإلى البيئة الصحراوية الجافّة التي اعتادوها، واقتنعوا بها، برغم ما كانوا يلقون فيها من خشونة العيش وقلّة الخير، فقد فضلوا حياة الصحراء على حياة المدينة.

فهذا عبد الله ابن الدُّمَينة الخَثْعَميّ (ت١٨٠هـ) الشاعر الرقيق، سكن البادية جنوبيّ الحِجاز مما يلي اليَمَن، اجتمع له مع الفروسية والشجاعة والغيرة والأنفة، فقد كان رجل من بني سلول يغشى زوجته (حَمّاء)، التي عرفت بالخنا والفجور، وعندما علم ابن الدّمينة الخبر، قتلهما وقتل ابنته، وهرب خوفاً من الثأر[١]. وقد لبث في السجن زماناً؛ إثر هذه الحادثة، غريباً بعيداً عن دياره وأهله، فجمع مع عذاب الغربة عذاب السجن والقيود، وسيطرت عليه مشاعر الحنين، ولعلّه ابتلي بالحبّ واكتوى بناره غير مرّة، فهو – غالباً – ما يقترن حنينه إلى وطنه بذكر المحبوبة والشوق إليها. ففي قصيدته الآتية، حينما كان في السجن، ينتابه الإحساس بالضيق وفقدان الحرية والقيد، وتعبث بقلبه مشاعر الغربة بين من هم في السجن من الغرباء، فلا يملك في هذا الموقف الحرج إلا تذكر المحبوبة، والحنين إلى دياره (الحِمَى) ونسائه الجميلات اللواتي تفوح منهنّ رائحة الزَّعْفران الطيبة، قال[٢]:

ذَكَرْتُكِ وَالحَدَّادُ يَضْرِبُ قَيْدَهُ ... عَلَى السَّاقِ مِنْ عَوْجَاءَ بَادٍ كُعوبُهَا[٣]

---

(١) انظر: ابن الدمينة، ديوان ابن الدمينة، صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفاخ، د.ت، دار العروبة، القاهرة، ص ٥– ٩.

(٢) ابن الدمينة، ديوانه، ص ١٨٥، ١٨٦.

(٣) الحدّاد: السّجان. عوجاء: يريد رجله، ورجل عوجاء أي ضامرة هزيلة.

فَقُلْتُ لِرَاعِي السِّجْنِ والسِّجْنُ جامِعٌ قَبَائِلَ مِنْ شَتَّى وَشَتَّى ذُنُوبُهَا
أَلا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَزُورَنَّ نِسْوَةً مُضَرَّجَةً بِالزَّعْفَرانِ جُيوبُهَا(١)
وَهَلْ أَلْقَيَنْ بِالسِّدْرِ مِنْ أَيْمَنِ الحِمَى مُصَحَّحَةَ الأَجْسامِ مَرْضَى قُلوبُهَا(٢)

وكثيراً ما يتساءل ابن الدّمينة متعجّباً من عدم مقدرته على الرجوع إلى وطنه وأهله في الحمى، وعندما يتذكر ذلك ينتابه القلق والاضطراب، وانظر إليه كيف يصوّر قلبه بجناح الطائر الذي يخفق، قال(٣):

أَحَقّاً عِبَادَ اللهِ أنْ لَسْتُ رَائِياً سَنَامَ الحِمى أُخْرى اللَّيالي الغَوَابِرِ(٤)
كَأَنَّ فُؤَادي مِنْ تَذَكُّرِهِ الحِمى وَأَهْلَ الحِمى يَهْفو بِهِ رِيشُ طائرِ(٥)

وحين يتذكر ابن الدّمينة دياره، وأيامه الفائتة في الحمى بين أهله وأحبته، ويدرك بأنّ هذه الأيام لا رجوع لها، يحاول التّجلد وزجر نفسه عن البكاء، ولكنّه يستسلم لنوازع الشوق والحنين، وينتابه الإحساس بالنّدم (خلِّ عينيك تدمعا)، فيفقد القدرة على التّجلّد، وتنهال الدّموع من عينيه الاثنتين (أسبلتا معاً)، قال(٦):

---

(١) مضرّجة: ملطّخة. الزّعفران: ضرب من الطيب يصبغ به. الجيوب: جمع جيب، وجيب القميص فتحته، وأراد أعالي الصّدور.
(٢) السّدر: جمع سِدرة، وهي شجرة النبق، وأراد به موضعاً بعينه. الحمى: من قولهم أحمى المكان، أي جعله حمى لا يقرب، وأراد به موضعاً بعينه.
(٣) ابن الدمينة، ديوانه، ص٤٥.
(٤) سنام: جبل بالحجاز بين ماوان والربذة.
(٥) يهفو: يخفق.
(٦) ابن الدمينة، ديوانه، ص ١٧٩، ١٨٠.

وَأَذْكُرُ أَيَّامَ الحِمَى ثُمَّ أَنْثَنِي عَلَى كَبِدِي مِنْ خَشْيَةٍ أَنْ تَصَدَّعَا
وَلَيْسَتْ عَشِيَّاتُ الحِمَى بِرَوَاجِعٍ عَلَيْكَ وَلَكِنْ خَلِّ عَيْنَيْكَ تَدْمَعَا
بَكَتْ عَيْنِيَ الْيُمْنَى فَلَمَّا زَجَرْتُهَا عَنِ الْجَهْلِ بَعْدَ الحِلْمِ أَسْبَلَتَا مَعَا(١)

استطاع ابن الدّمينة من خلال تصوير الحالة التي تعتريه لذكر الوطن والماضي، حين ينثني على كبده خشية تمزّقه، أن يعمق الإحساس بألم الغربة والابتعاد عن الدّيار والأهل. ولعلّ ألم الكبد يزداد إذا ما لمع البرق في الليل، وحينما تصبح الحياة كلّها غربةً وابتعاداً عن الأهل والأوطان يتساوى عنده الموت مع الحياة، بل إنّه يفضل الموت على الغربة والنّزوح عن الدّيار، قال(٢):

فَوَا كَبِدِي مِمَّا أُحِسُّ مِنَ الْهَوَى إِذَا ما بَدَا بَرْقٌ مِنَ اللَّيْلِ يَلْمَحُ(٣)
لَئِنْ كانَ هَذا الدَّهْرُ نَأْيَاً وَغُرْبَةً عَنِ الأَهْلِ وَالأَوْطَانِ فَالمَوْتُ أَرْوَحُ(٤)

ويستدعي ابن الدّمينة صورة الجمل المُسِن فنِّياً؛ ويجعل منه معادلاً موضوعياً لغربته وحنينه إلى وطنه وأهله، وقناعاً يتستّر خلفه ليبثّ من خلاله حزنه وألمه وغربته، فيسقط عليه ما تحمله نفسه من لوعة وهموم، ويمعن بالشكوى، فالجمل المُسِن الهزيل الذي يحنّ عندما يرى ركائب الإبل، والتحولات التي أصابته: من صغر إلى كبر، ومن ارتواء إلى ظمأ، ومن أراضٍ خصبة ومراعٍ إلى أرض يابسة قفر، ومن حرّية إلى قيد، كلّ ذلك يوحي بإحساسه بالعجز واليأس أمام تقلّبات الزمن والدّهر، قال(٥):

---

(١) أسبلتا: يقال أسبل المطر والدّمع إذا هطلا.
(٢) ابن الدمينة، ديوانه، ص٢١٢.
(٣) يلمح: يلمع، وقيل: لا يكون اللمح إلا من بعيد.
(٤) أروح: أكثر إراحة.
(٥) ابن الدمينة، ديوانه، ص٢٤، ٢٥.

وَمَــا عَــوْدٌ تــضمَّنَ بَطْــنُ عِــرْضٍ	يَمَــانِي الــشَّوْقِ مُــضْطَمِرٌ غَلِــيْلا[١]
يَحِــــنُّ إِذَا الرَّكَائِــــبُ باكَرَتْــــهُ	ضُــحَيًّا أَوْ هَبَــبْنَ لَــهُ أَصِــيْلا[٢]
بِــــوادٍ لاَ يُفَــــارِقُ عُدْوَتَيْــــهِ	أَســنَّ بِــهِ وكَــانَ بِــهِ فَــصِيْلا[٣]
فَبُــدِّلَ مَــشْرَباً مِــنْ ذَاكَ مِلْحــاً	وَظِمْــأً بَعْــدَ قَــصْرَتِهِ طَــوِيْلا
وَبُــدِّلَ حَــرَّةً وَجَمَــادَ أَرْضٍ	يُمَــارِسُ فــي حَرَارَتِهَــا الكُبُــوْلا[٤]
بِــأَنْكَرَ لَوْعَــةً مِنِّــي وَوَجْــداً	عَلَــى إِضْــمَارِيَ الهَجْــرَ الطَّــوِيْلا

وكما يستدعي ابن الدّمينة الجمل وسيلةً فنيةً؛ للتعبير عن حنينه، فإنّه يكثر من استدعاء الرياح والبروق وسائل فنيةً؛ ويجعل منها مثيراً لعواطف الحنين، تهيج أشجانه، وتذكّره بوطنه وأهله. وبذلك ينهج نهج الشاعر الجاهلي في أساليبه وصوره. فالرِّياح اليمانيّة التي تأتي من الجنوب حاملةً معها رائحة الوطن وأشجاره ونباته، وأخبار أحبّته، تثير حنينه إليهم، بل وتخفّف عنه أحزانه وآلامه (يجيء مريضاً صوبُه فيطيب). والبرق اليماني – أيضاً– يؤجج أشواقه وحنينه، قال[٥]:

تَهِــيْجُ عَلَــيَّ الــشَّوْقَ بَعْــدَ انْدِمَالِــهِ	يَمَانِيــةٌ عُلْوِيَّــةٌ وَجَنُــوْبُ

(١) العود: الجمل المسن. البطن: ما غمض من الأرض واطمأن. العِرض: كلّ وادٍ فيه شجر، والعِرض وادٍ باليمامة. الغليل: شدّة العطش وحرارته.
(٢) الركائب: جمع ركوبة، وهي ما يركب من الإبل. الجنائب: جمع جنوب، وهي ريح تستقبل الواقف في القبلة عن شماله. ضحيّ: تصغير ضحى. الأصيل: العشي.
(٣) عدوتا الوادي: شاطئاه. الفصيل: ولد النّاقة إذا فصل عن أمّه.
(٤) الحرّة: الأرض الصلبة الغليظة التي بها حجار سود نخرة. الجماد: الأرض الغليظة اليابسة. الكبول: جمع كَبل، وهو القيد الضخم. يمارس: يعالج ويزاول.
(٥) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٠٨.

أَحِـــنُّ إِلـــى الرَّمْـــلِ اليَمَـــانِي صَـــبَابَةً ... وَهَـــذا لَعَمْـــرِي لَـــوْ رَضِـــيْتُ كَثِيْـــبُ
فَأَيْنَ الأَرَاكُ الـــدَّوْحُ والـــسِّدْرُ والغَـــضَى ... وَمُـــسْتَخْبِرٌ مِمَّـــنْ تُحِـــبُّ قَرِيْـــبُ(١)
وإِنَّ النَّسِيْمَ العَـــذْبَ مِـــنْ نَحْـــوِ أَرْضِـــهَا ... يَجِـــيءُ مَرِيْـــضَاً صَـــوْبُهُ فَيَطِيْـــبُ
وَإِنِّـــي لأَرْعَـــى الـــنَّجْمَ حَتَّـــى كَـــأَنَّنِي ... عَلَـــى كُـــلِّ نَجْـــمٍ فـــي الـــسَّمَاءِ رَقِيْـــبُ
وَأَشْـــتَاقُ لِلْبَـــرْقِ اليَمَـــانِي إِذَا غَـــدَا ... وَأَزْدَادُ شَـــوْقاً أَنْ تَهُـــبَّ جَنُـــوْبُ

والبرق عند ابن الدّمينة لا يثير عواطفه فحسب، بل إنّ له تأثيراً في نفسيته حين يجعله قلقاً عاجزاً عن النّوم، يتقلّب في فراشه، خاصّةً عندما يلمع ليلاً في ساعة الوهن، فينتابه الشعور بالحنين إلى دياره وأهله، والإحساس بمرارة البعد عنهم. ولعلّ البرق اليماني عنده بمثابة رمز للوطن، وانظر إليه كيف كرّر (هيهات) مما يعكس إحساسه باليأس والعجز عن الخلاص من الفراق والبين، فآخر أيامه أصبحت نوىً وبعداً لا ينتهي، قال(٢):

هَاجَـــكَ البَـــرْقُ اليَمَـــانِي مَوْهِنـــاً ... فَلَـــهُ نَوْمُـــكَ تَغْمِيْـــرٌ وَسُـــهُدْ(٣)
رَاحَ للعَـــيْنِ بِـــأَعْلَى رَاحَـــةٍ ... لِجِنَـــابٍ حَبَّـــذَا ذَاكَ البَلَـــدْ(٤)
فَـــشَرَى بَـــدْرٍ فَجَنْبَـــي مَرْمَـــرٍ ... ثُـــمَّ أَدْنَـــى عَهْـــدِ مَـــنْ كُنَّـــا نَـــوَدْ(٥)
فَـــالنَّوَى هَيْهَـــاتَ هَيْهَـــاتَ بِهَـــا ... آخِـــرَ الأَيَّـــامِ مَـــا دَامَ الأَبَـــدْ

---

(١) الأراك: نوع من الشجر يتخذ من عيدانه السواك. الدّوح: جمع دوحة، وهي الشجرة العظيمة المتسعة من أي أنواع الشجر كانت. السدر: جمع سدرة، وهي شجرة النّبق. الغضى: شجر ينبت بالرّمل.

(٢) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٣٣.

(٣) الموهن: نحو نصف الليل. التغمير: القليل الذي لا يفي بالحاجة. السهد: النوم القليل.

(٤) راحة: موضع في أوائل اليمن. جناب: موضع بواد القرى.

(٥) مرمر: موضع.

ونَجْد من أكثر المواضع التي حنّ إليها شعراء البادية قديماً، ولا عجب في ذلك، فهي تقع في قلب شبه الجزيرة العربية، وقد خصّها الله بجمال الصّحراء الفريد، وتميزت بطيب هوائها ومائها، وهي موطن البدو الرّحّل، الذين إذا ما ابتعدوا عنها حنّوا إليها، فابن الدّمينة تثيره رياح الصَّبا التي تأتي من نجد؛ فيحنّ إليها، ويسمع صوت الحمام؛ فيهيج أشجانه، ويبكي حزناً على فراق نجد، ويحاول أن يتستّر على حنينه بحنين ناقته. وانظر إليه كيف يكثّف من استدعاء الوسائل الفنّية، التي عبّر بها شعراء الحنين الأوائل عن حنينهم إلى أوطانهم وأهلهم، فيستدعي الرّياح والحمام والدّموع والنّاقة فنيّاً؛ للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه، قال(١):

أَلاَ يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْتِ مِنْ نَجْدِ ... لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدَاً عَلَى وَجْدِي(٢)

أَأَنْ هَتَفَتْ وَرْقَاءُ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى ... عَلَى فَنَنٍ غَضٍّ النَّبَاتِ مِنَ الرَّنْدِ(٣)

بَكَيْتَ كَمَا يَبْكِي الوَلِيدُ وَلَمْ تَكُنْ ... جَلِيداً وَأَبْدَيْتَ الَّذِي لَمْ تَكُنْ تُبْدِي

وَحَنَّتْ قَلُوصِي مِنْ عَدَانَ إِلَى نَجْدِ ... وَلَمْ يُنْسِهَا أَوْطَانَهَا قِدَمُ العَهْدِ(٤)

وينظر ابن الدّمينة إلى النّجوم في السماء؛ فتذكّره أحبّته النازحين عنه، ويرى غيمة وبرقاً يلمع من نحو نجد؛ فيثير عواطفه ومشاعره، ويحنّ إلى نجد ويشتاق إلى أحبته، ولا يملك إلا الشكوى إلى صاحبيه والدّموع والبكاء وسيلةً للتخفيف من أحزانه وأشجانه. وانظر إليه كيف يوظّف الحوار بينه وبين صاحبيه (فقلت لأصحابي، فقالا، قال صحابتي) في تعميق الإحساس بمرارة الفراق والابتعاد عن الوطن، قال(٥):

---

(١) ابن الدمينة، ديوانه، ص٨٥، ٨٦.

(٢) الصّبا: ريح تهبّ من موضع مطلع الشمس إذا استوى الليل مع النهار، وتقابل الدَّبور.

(٣) ورقاء: حمامة. رونق الضّحى: أوله. فنن: غصن. الرّند: شجر من أشجار البادية طيب الرّائحة.

(٤) عدان: موضع في ديار بني تميم بسيف كاظمة.

(٥) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٧٠، ١٧١.

ذَكَرْتُــكِ وَالــنَّجْمُ اليَمَــانِي كَأَنَّــهُ　　وَقَدْ عارَضَ الــشِّعْرَى قَرِيْــعُ هِجَــانِ[١]

فَقُلْــتُ لأَصْــحَابِي – وَلاحَــتْ غَمَامَــةٌ　　بنَجْــدٍ – أَلا لله مَــا تَرَيَــانِ

فَقَــالا: نَــرَى بَرْقَــاً تَقَطَّــعُ دُوْنَــهُ　　منَ الطَّــرْفِ أَبْــصَارٌ لَهُــنَّ رَوَانِــي[٢]

أَفِــي كُــلِّ يَــوْمٍ أَنْــتَ رَامٍ بَلادَهَــا　　بِعَيْنَــيْنِ إِنْــسَانَاهُما غَرِقَــانِ[٣]

فَعَيْنَــيَّ يَــا عَيْنَــيَّ حَتَّــامَ أَنْتُمَــا　　بِهِجْــرَانِ أُمِّ الغَمْــرِ تَخْتَلِجَــانِ[٤]

إِذَا اغْرَوْرَقَــتْ عَيْنَــايَ قَــالَ صَــحَابَتِي　　إِلى كَمْ – تَــرَى – عَيْنَــاكَ تَبْتَــدِرَانِ[٥]

ولعلّ ابن الدّمينة حينما قدم المدينة لم تعجبه الحياة فيها، ولم تنسه حياة الحضر حياة البادية والصحراء، فظلّ يحنّ إلى بادية نجد، ويشتاق إلى أحبّته فيها، وهو يطلب من صاحبيه أن يقرّباه من نجد؛ لينظر إليها نظرةً علّها تخفّف عنه ألم الغربة وفراق الأحبّة، قال[٦]:

أَيَــا أَخَــوَيَّ بالْمَدِينَــةِ أَشْــرِفا　　بِيَ الصَّمْدَ أَنْظُرْ نَظْرَةً هَلْ أَرَى نَجْــدَا[٧]

فَمَــا زَادَنِــي الإِشْــرَافُ إِلاّ صَــبَابَةً　　وَلا ازْدَدْتُ إِلاَّ عَــنْ مَعارِفِهــا بُعْــدَا[٨]

فَــإِنَّ بِنَجْــدٍ مَــنْ بَرَانِــيَ حُبُّــهُ　　فَلَــمْ يَتَّــرِكْ مِنِّــي عِظَامَــا وَلاَ جِلْــدَا

فَقَــالَ الْمَــدِينيَّانِ أَنْــتَ مُكَلَّــفٌ　　بِــداعِي الْهَــوَى لا تَــسْتَطِيعُ لَــهُ رَدَّا

---

(١) النجم اليماني: يريد نجم سهيل، ومطلعه اليمن. الشعرى: نجم نيّر ويقال له المرزم. القريع: الفحل من الإبل، يقرع النّوق. الهجان: الإبل البيض الكرام.

(٢) رواني: من الرّنو وهو إدامة النّظر مع سكون الطّرف.

(٣) إنسانا: مثنى إنسان، وإنسان العين ناظرها.

(٤) تختلجان: تضطربان.

(٥) تبتدران: تسيلان بالدّموع.

(٦) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٨٧، ١٨٨.

(٧) الصمد: الصمد ماء للضباب، وهي في الأصل الغليظ من الأرض.

(٨) الصّبابة: الشّوق، وقيل رقّته وحرارته.

لقد فضّل شعراء البادية حياة الصحراء القاسية على حياة المدن والحضر، وكانوا إذا سألهم أحد عن باديتهم بالغوا في الثّناء عليها، وصوّروا شدّة قناعتهم ورضاهم وسعادتهم بها وبعيشها، وإذا ما قدموا المدن ضاقت بهم الحال وحنّوا إلى البادية وإلى طعامها وشرابها. فعندما مرض أعرابي بالحضر، فقيل له: ما تشتهي؟ فقال: محضاً روياً وضبّاً مشوياً(١). ولعلّ أجمل شعر العرب وأصدقه في تصوير حنينهم إلى باديتهم قصيدة طارق بن نابي (كان في زمن الرّشيد)، التي يحنّ فيها إلى صحراء نجد، فيستدعي الحمام وسيلةً فنيّةً؛ تثير حنينه إلى وطنه وأحبّته، ويطيل في مشاركتها عواطفه ومشاعره مشاركةً وجدانيةً. ثمّ يستدعي صورة المرأة البدوية التي قذفت بها الغربة في الحاضرة بعيداً عن وطنها، فلم تناسبها حياة الحضر، وأصبحت تحنّ إلى نجد وطيب مائها وترابها، وإلى بساطة الحياة البدوية فيها، وتتمنّى أحاليب الرّعاء، والعيش في الخيمة؛ ليجعل منها معادلاً موضوعيّاً لحنينه إلى ذلك، قال(٢):

ألا قاتَلَ اللهُ الحَمامَةَ غُدْوةً ... على الغُصْنِ ماذا هَيَّجَتْ حينَ غَنَّتِ
تَغَنَّتْ بِصَوْتٍ أَعْجَمِيٍّ وهَيَّجَتْ ... جَوايَ الذي كانتْ ضُلُوعِي أَجَنَّتِ(٣)
فَلَوْ قَطَرَتْ عَيْنُ امْرِئٍ مِنْ صَبَابَةٍ ... دَمَاً قَطَرَتْ عَيْنِي دَمَاً فَأَلَمَّتِ(٤)
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّى أَوَيْتُ لِصَوْتِهَا ... وَقُلْتُ تَرَى هَذِي الحَمَامَةُ جُنَّتِ
ولِي زَفَراتٌ لَوْ يَدُمْنَ قَتَلْنَنِي ... بِشَوْقٍ إِلَى نَأْيِ الَّتِي قَدْ تَوَلَّتِ

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢/ ٣٩٠. والمحاسن والأضداد، ص١٠٣. وابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ص٤١. والبيهقي، المحاسن والمساوئ، ص٣٤٢. المحض: اللبن الخالص لم يخالطه ماء، حلواً كان أم حامضاً.

(٢) انظر الأبيات (لطارق بن نابي) في: البصري، الحماسة البصرية، تحقيق مختار الدين أحمد، ط٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، عالم الكتب، بيروت، ٢/١٤٣، ١٤٤. وبلا نسبة في: الأصفهاني، الأغاني، تحقيق سمير جابر، ط٢، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، دار الكتب العليمة، بيروت، ٥/٣٧٠.

(٣) جواي: الجوى شدّة الوجد من عشق أو حزن. أجنّت: أخفت وسترت.

(٤) ألمّت: من اللّمّ وهو الجمع الكثير الشديد.

إِذَا قُلْتُ هَذِي زَفْـرَةُ اليَـوْمِ قَـدْ مَـضَتْ فَمَنْ لِي بِأُخْرَى فـي غَـدٍ قَـدْ أَظَلَّـتِ(١)

فيا مُنْشِرَ المَـوْتَى أَعِنِّـي عَلَـى الَّتـي بِهـا نَهَلَـتْ نَفْـسِي سَـقاماً وعَلَّـتِ(٢)

لقَـدْ بَخِلَـتْ حتَّـى لَـوَ انَّـي سـأَلْتُها قَذَى العَيْنِ مِن سافِي التُّـرابِ لَـضَنَّتِ(٣)

فَقُلْـتُ ارْحَـلا يَـا صَـاحِبَيَّ فَلَيْتَنِـي أَرَى كَـلَّ نَفْـسٍ أُعْطِيَـتْ مَـا تَمَنَّـتِ

حَلَفْـتُ لَهـا بـالله مـا أُمُّ واحِـدٍ إذا ذَكَرَتْـهُ آخِـرَ اللَّيْـلِ حَنَّـتِ

ومـا وَجْـدُ أَعْرابِيَّـةٍ قَـذَفَتْ بِهـا صُرُوفُ النَّوَى مِنْ حَيْثُ لمْ تكُ ظَنَّـتِ(٤)

تَمَنَّـتْ أَحالِيـبَ الرِّعـاءِ وخَيْمَـةً بنَجْـدٍ فلـم يُقْـدَرْ لَهـا مـا تَمَنَّـتِ(٥)

إذا ذَكَـرَتْ مـاءَ العِـضاهِ وطِيبَـهُ وبَرْدَ الحَصَى من بَطْنِ خَبْـتٍ أرَنَّـتِ(٦)

بـأَعْظَمَ مِنِّـي لَوْعَـةً غَيْـرَ أَنَّنِـي أُجَمْجِـمُ أَحْـشائِي علـى مـا أجَنَّـتِ(٧)

وكانَـتْ رِيـاحٌ تَحْمِـلُ الحـاجَ بَيْنَنـا فقَـدْ بَخِلَـتْ تِلـكَ الرِّيـاحُ وضَـنَّتِ(٨)

ولعلّ ما يصور حنين شعراء البادية إلى باديتهم، حنينهم إلى النباتات الصّحراوية، تلك التي لا تنبت إلا في البيئة الجافّة؛ مما يدلّ على التصاقهم ببيئتهم، وحبهم الشديد لأوطانهم، وتمسّكهم بها. فقد قدم أعرابي من بادية نجد إلى بغداد، وحينما كان في بستان إبراهيم بن المهدي

---

(١) أظلّت: يريد ظلّت بمعنى بقيت.

(٢) منشر: محيي. نهلت: من النّهل وهو أول الشرب. علّت: من العلّ وهو الشربة الثانية بعد النّهل.

(٣) ضنّت: بخلت.

(٤) الوجد: الحزن.

(٥) أحاليب: جمع إحلابة، وهي ما يحلبه الرّجل لأهله وهو في المرعى ثمّ يبعثه إليهم.

(٦) العضاه: لم أجدها، وقد تكون الفضاء وهو موضع في المدينة. خبت: علم لصحراء بين مكة والمدينة يقال له خبت الجميش. أرنّت: صاحت، من الرنين وهو الصيحة الحزينة عند البكاء.

(٧) لوعة: اللوعة هي حرقة الحزن والهوى والوجد. أجمجم: أخفي.

(٨) الحاج: جمع حاجة، وهي المأربة.

(ت٢٢٤هـ)، سمع أصوات الحمام فهيّجت عواطفه وأحزانه، وحنّ إلى وطنه نجد، وذكر نباته (الشّيح والعرار)، وانظر إليه كيف وظّف البرق والرّياح والحمام والبكاء فنياً في التّعبير عن حنينه إلى وطنه، وهو بذلك ينهج نهج الشاعر الجاهلي في صوره ووسائله، قال[١]:

أَشاقَتْكَ البَوارِقُ والجَنُوبُ ومِنْ عَلْوَى الرِّياحِ لَهَا هُبُوبُ
أَتتكَ بنفحةٍ مِن شِيحِ نَجْدٍ تَضَوَّعُ والعَرارُ بِها مَشوبُ[٢]
ومِن بستانِ إبراهيمَ غَنَّتْ حمائِمُ بينها فَنَنٌ رطيبُ
كما هَيَّجْتَ ذا حَزَنٍ غريباً على أشجانه فبكى الغريبُ

وتبلغ رهافة الحسّ عند شعراء البادية مبلغاً عجيباً، حتى إنّ كلّ شيء من حولهم يذكّرهم بأوطانهم، فحينما كان إسحاق الموصلي (ت٢٣٥هـ) في نزهة مرّ به أعرابي، فوجّه إسحاق خلفه بغلامه، فوافاه الأعرابي، فلمّا شرب الأعرابي وسمع حنين الدّواليب؛ ذكّرته وطنه وأثارت مشاعره وأشجانه، فبكى وحنّ إلى دياره وأهله، وانظر إليه كيف خلع بعض ما في نفسه على تلك الدواليب، وجسّد منها إنساناً له مشاعر يحنّ ويبكي؛ ليعبّر عن عواطفه، قال[٣]:

بَكَرتْ تَحِنُّ وما بِها وَجْدِي وأَحِنُّ مِن وَجْدٍ إلى نَجْدِ
فدموعُها تَحْيا الرِّياضُ بِهَا ودموعُ عَيْنِي قَرَّحَتْ خَدّي[٤]
وبساكِنِي نجدٍ كَلِفْتُ وما يُغْنِي لَهم كَلَفِي ولا وَجْدي

---

(١) القالي، الأمالي، تحقيق علي محمد زينو، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، مؤسسة الرسالة، دمشق، ٥٣/١.
(٢) شيح: الشّيح نبات سهلي له رائحة طيبة وطعم مرّ. تضوّع: تحرّك فانتشرت رائحته. العرار: جمع عرارة، وهو نبات طيب الرائحة.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، ٣٨٠/٥، ٣٨١.
(٤) قرّحت: جرّحت.

لـــو قِـــيس وجـــدُ العاشـــقين إلـــى وَجْـــدي لـــزاد عليـــه مـــا عنـــدي

ولم يفضّل شعراء البادية صحراءهم وباديتهم على المدن والحضر فحسب، بـل إنّهـم أكثروا من ذمِّ المدن وذمّ حياتها، فهذا نوح بن جرير الخَطَفى – ابن الشاعر المشهور– قدم من البادية موطن آبائه إلى بغداد حاضرة الخلافة العباسية، فلم تناسبه الحياة الحضريّة فيها، وشعر بالضيق والحزن، وخاف أن تدركه المنية فيها؛ فحنّ إلى وطنه بادية نجد وما فيها مـن ظبـاء متنوّعة ونعام، وذمّ حياة المدن وما فيها من براغيث وحشرات، فقال(١):

أَلا قَـــدْ أَرَى أَنَّ المَنَايَـــا تُـــصِيبُنِي فَمَـــا لِـــيَ عَـــنْهُنَّ انْـــصِرَافٌ وَلا بُـــدُّ

أَذَا العَـــرْشِ لا تَجْعَـــلْ بِبَغْـــدَادَ مِيْتَتِـــي وَلَكِـــنْ بِنَجْـــدٍ حَبَّـــذَا بَلَـــداً نَجْـــدُ

بِـــلادٌ نَـــأَتْ عَنْهَـــا البَرَاغِيْـــثُ وَالتَقَـــى بِهَـــا العِـــيْنُ وَالآرامُ وَالعُفْـــرُ والرُّبْـــدُ(٢)

وهذا أعرابي آخر ساخط على حياة المدن، يذمّ رياحها وأمطارها، وإن كانت معيـشتها رغيدة، ويحنّ إلى بادية نجد، قال(٣):

أَرَى الرِّيْـــفَ يَـــدْنُو كُـــلَّ يَـــوْمٍ وَلَيْلَـــةٍ وَأَزْدَادُ مِـــنْ نَجْـــدٍ وَصَـــاحِبِهِ بُعْـــدَا

أَلا إِنَّ بَغْـــــدَادَاً بِـــــلادٌ بَغِيْـــــضَةٌ إِلَـــيَّ وَإِنْ كَانَـــتْ مَعِيْـــشَتُهَا رَغْـــدَا

بِـــلادٌ تَهُـــبُّ الـــرِّيْحُ فِيْهَـــا مَرِيْـــضَةً وَتَـــزْدَادُ خُبْثَـــاً حِـــيْنَ تُمْطِـــرُ أَوْ تَنْـــدَى

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ٣٠٦/٥.

(٢) البراغيث: جمع بُرْغُوث، وهي دويبة. العين: بقر الوحش. الآرام: الظباء الخالصة البياض. العفر: الظباء التي تسكن صلاب الأرض، وتعلو بياضها حمرة. الرُّبد: جمع ربداء، وهي النعامة، سميت بذلك لأنّ لونها بين السواد والغبرة.

(٣) الحموي، معجم البلدان، ٣٠٧/٥.

وهذا عُمارة بن عقيل (ت٢٣٩هـ)، عاش حياته متنقّلاً بين بغداد حاضرة الخلافة وبين البادية، فقد كان مدّاحاً للخلفاء والوزراء والأشراف والقوّاد في بغداد، حتى إذا كسب مالاً عظيماً انصرف إلى بادية البَصْرة وطنه ووطن آبائه[1]. ولعلّ الحياة الحضريّة في بغداد لم تؤثّر في عُمارة ولم تصرفه عن حبّ البادية، فقد ظلّ حبها مسيطراً عليه على الرّغم مما في بغداد من الهبات التي كانت تنهال عليه من ممدوحيه، وما في البادية من شظف العيش وقسوة الحياة، فكان إذا ما ابتعد عن بادية البصرة حنّ إليها، واشتاق إلى بساطة الحياة فيها، والعيش في بيوت الشّعر المفتوحة التي تلعب بها الغزلان والظباء، فهي أحبّ إليه من بيوت بغداد وقصورها العظيمة المغلقة، وأحبّ إليه من السفن التي تسير في نهر دجلة، قال[2]:

لَمُستَمْطَرٌ بالرَّملِ في بيتِ حُرَّةٍ ... هِجانٍ بِحَبلِ ذي ألاءٍ وَعَرْفَجِ[3]

تخورُ بهِ الغِزلانُ كلَّ عَشيَّةٍ ... إلى كُلِّ خَشْفٍ كالسِّوارِ وَتَخرجِ[4]

أَحَبُّ إلينا مِنْ قراقيرِ ساحلٍ ... بدجلةَ أو قصرٍ ببغدادَ مُرْتَجِ[5]

---

(١) انظر: ابن المعتز، طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق عمر فاروق الطبّاع، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، دار الأرقم، بيروت، ص٣٥٥.

(٢) عمارة بن عقيل، ديوان عمارة بن عقيل، تحقيق شاكر العاشور، ٢٠٠٦م، دار الينابيع، دمشق، ص٤٣.

(٣) مستمطر: أي مكان بارز من الأرض منكشف، وقد يكون من قولهم مكان مستمطر أي محتاج إلى المطر. الرمل: موضع بعينه. هجان: امرأة كريمة الحسب لم تعرق فيها الإماء. حبل: موضع ببادية البصرة. ألاء: جمع الألاءة، وهي شجر من شجر الرّمل حسن المنظر مرّ الطعم. عرفج: جمع عرفجة، وهي نبت سهلي.

(٤) تخور: تصيح. خشف: الخشف هو الظبي أول مشيته. السّوار: من الحليّ.

(٥) قراقير: جمع قرقور، وهي السفينة العظيمة أو الطويلة. مرتج: محكم الإغلاق، من الرِّتاج وهو الباب العظيم، وقيل الباب المغلق.

المبحث الثّاني:

الحنين إلى المُدُن والحَواضر

ظهر الحنين إلى المدن – بصفته اتجاهاً شعرياً– مع ظهور المدينة العربية وهذا ما يتضح في شعر العصرين الإسلامي والأموي، فقد بنيت البصرة والكوفة في عصر صدر الإسلام، وازدهرت مكّة والمدينة في الحقبة ذاتها. وازدهرت دمشق في العصر الأموي. وبنيت بغداد وسامراء في العصر العباسي، وازدهرت الحضارة في العصر نفسه.[١] إلاّ أنّ الحنين – في هذين العصرين الإسلامي والأموي– لا يكاد يبعد كثيراً عن شعر الحنين إلى الوطن بشكل عام كما كان في الشعر العربي قبل الإسلام. فلم يكن العربي متعلّقاً بمجتمع المدينة، أمّا بقدوم العصر العباسي فقد كان ارتباط العربي بالمدينة ارتباطاً وثيقاً.

وقد رافق هذا التحوّل الحضاري الذي طرأ على المجتمع، ظهور وجه جديد من الحنين، هو الحنين إلى المدن ترسَّمَ فيه أوجه الحياة الحضرية لكلّ سماتها.[٢] وعندها تطوَّر الحنين، إذ أصبحت المدينة هي الوطن وإليها يحنّ المغترب، وبذلك اتسع مفهوم الوطن في العصر العباسي، فلم يعد يمثِّل ديار القبيلة، بل أصبح المدينة والبلاد كلها.[٣]

---

(١) انظر: حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص٤٤– ٤٦.

(٢) انظر: الهيتي، بغداد في شعر العصر العباسي الأول حتى سنة ٣٣٤هـ، رسالة ماجستير، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، الجامعة المستنصرية، بغداد، ص١٣٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٣.

الحنين إلى بغداد:

ما لبثت بغداد أن أصبحت أهمّ مدينة في العالم العربي، إذ بنيت فيها مئات المساجد وعشرات القصور الفخمة، وتكاثر بها التّجار والصنّاع، وأمَّها المغنون والمغنيات، ونزلها الأدباء والعلماء من كلّ صنف وعلى كل لون. فزخرت بالحياة، تزينها البساتين الملحقة بالدور والقصور والمتنزهات والقوارب التي كانت تتلألأ على صفحات دجلة.(١)

لقد أصبحت بغداد مدينة الشعراء ووطنهم، ووجدت مكانها في قلوبهم، ففيها نشأتهم وأهلهم وفيها ذكرياتهم الجميلة، وما إن يبعد أحدهم عنها حتى تلتهب نار الشوق والحنين إليها وإلى أهلها والأحبة فيها، وإلى مطارح الذكريات فيها، ولم تكن بغداد مجرد مدينة يحنّ إليها أبناؤها لأنها وطنهم فقط؛ بل لأنها دار الخلافة، ومدينة الخير والنيعم، مدينة الحضارة والفكر.(٢) فكان يقال: بغداد حاضرة الدّنيا، وما سواها بادية.(٣) وبغداد أمّ الدّنيا، وسيدة البلاد.(٤)وحتى إن كثيراً من الذين وفدوا إليها من أمصار الدولة أعجبوا بها كثيراً، وفضّلوها على مدنهم، فهم ما إن يحيدوا عنها حتى يتملّكهم الشوق والحنين إليها.

فهذا الحسين بن مطير (ت١٧٠هـ) في قصيدته التالية، يكشف عن حب صادق لمدينته ووطنه بغداد، ومشاعر الألم؛ لغيابه عنها، عبّر عن حنينه إليها بأسلوب جديد، فهو يستوقف أصحابه ولكن ليس على الأطلال، وإنما على مشارف المدينة، قال متشوقاً إلى دار السلام(٥):

---

(١) ضيف، تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الأول، ط١٤، د.ت، دار المعارف، القاهرة، ص١٧، ١٨.

(٢) الهيتي، بغداد في شعر العصر العباسي الأول حتى سنة ٣٣٤هـ، ص١٣٥.

(٣) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٢/٢٦٥.

(٤) الحموي، معجم البلدان، ١/٥٤٨.

(٥) الحسين بن مطير، شعر الحسين بن مطير الأسدي، جمع حسين عطوان، ١٩٦٩م، معهد المخطوطات، القاهرة، ص١٦٥، ١٦٦.

أقولُ لصحبي يومَ أشرفتُ واجفاً ... ونفسيَ قدْ كادَ الْهَوَى يستطيرُها[(١)]

ألا حبَّذا دارُ السَّلامِ وحبذا ... أَجارعُ وَعْساءِ التُّقِّيِّ فدورُها[(٢)]

ومِنْ مرقبِ الزَّوراءِ دارٌ حبيبةٌ ... إلينا محاني متنُها وظهورُها[(٣)]

وسَقياً لأعلى الواديينِ وللرحا ... إذا ما بدا يوماً لعينيكَ نورُها[(٤)]

لَعَمْرُكَ لَلْبَيْتُ الذي لا نَطُورُهُ ... أَحَبُّ إلينا مِنْ بِلادٍ نَطُورُها

يكشف النص منذ بدايته (واجفاً، يستطيرها) عن حالة الشاعر النفسية، وهي الاضطراب والانفعال؛ لمجرّد الإشراف على أبنية المدينة ومرقبها وجبالها، ويعكس ذلك شوقاً دفيناً كان يخفيه بداخله، وما إن اقترب من وطنه حتى ظهر من قلبه على لسانه.

ويوحي تكرار الألفاظ (الهوى، حبذا، حبيبة، أحبّ) بتعلّق الشاعر بالوطن وشدة حبه له، ويؤكد ذلك الدعاء له بالسقيا وأسلوب القسم في آخر الأبيات. ثمّ إنه تابع ذكر الأمكنة التي عاش فيها، ورسخت في وجدانه، فعدّدها واحداً واحداً (دار السلام، التقي، الزوراء،الرّحا)، وكأنه وجد في ذلك متعة كبيرةً، وتنفيساً لمشاعر الحنين.

وأمير المؤمنين هارون الرشيد (ت١٩٣هـ) ما إن يخرج من بغداد حتى يملأ الحزن قلبه على فراقها، ويملكه الحنين إليها، فلمّا ذهب إلى الحجّ وبلغ زرود[(٥)] التفت إلى ناحية العراق حزيناً، وقال متشوّقاً[(٦)]:

---

(١) واجفاً: مضطرباً. يستطيرها: يفرّقها.

(٢) دار السلام: بغداد وتسمى مدينة السلام. أجارع وعساء: الرمال السهلة اللينة. التقي: موضع.

(٣) مرقب: المنظرة في رأس جبل أو حصن. الزوراء: هي مدينة أبي جعفر المنصور على الجانب الغربي من بغداد.

(٤) الرحا: قرية ببغداد.

(٥) زرود: رمال بين الثعلبية والخزيمية بطريق الحاج من الكوفة.

(٦) الحموي، معجم البلدان، ٥٤٨/١.

أقـــولُ وقـــد جُزْنـــا زرودَ عـــشية وراحــتْ مطايانـــا تـــؤمُّ بنـــا نَجْـــدا

علـــى أهـــلِ بغـــدادَ الـــسَّلامُ فـــإنَّني أَزيـــدُ بـــسيري عـــن بلادهـــم بُعْـــدا

وفي قصائد كثيرة يتضح الحنين فيها بشكله الجديد إلى المدن والحواضر، فحين يغـادر الشاعر مدينته إلى مدينة أخرى يأخذه الحنين إليها، ولكنه حين يخرج من البلاد يحنّ إلى الوطن كلّه، ولعلّ هذا يتضح في قصيدة أبي نواس (ت١٩٨هـ) التالية، حيث تتشابك فيها مشاعر الحنين والغربة، مما يجعل الفصل بينهما أمراً صعباً، فحين رحل إلى مصر طلباً للرزق، لـم تناسـبه الحياة فيها بعيداً عن وطنه العراق، فقال متشوّقاً إليه(١):

ألا هَـلْ علـى اللّيْـلِ الطويـلِ مُعِـينُ إذا بعـــدت دارٌ وشـــطّ قـــرينُ

تَطَـاوَلَ هـذا الليْـلُ حتَّـى كأنّمـا علـــى نجْمِـــهِ ألاّ يَعـــودَ يَمـــينُ

كَفَـى حَزَنـاً أنّـي بفُـسطاطَ نـازِحٌ ولـي نحـو أكْنـافِ العِـراقِ حَنـينُ

بدأت الأبيات بحرف (ألا) مما يوحي بالشعور بالألم والحزن، ثمّ جاء الاستفهام (هـل على الليل الطويل معين...) ليفصح عن حاجة الغريب لمن يخلّصه من الحزن والهمّ. ووظّـف الشاعر الليل رمزاً للغربة والرحيل عن الوطن، فتطاول الليل معادل لتطاول الغربـة، ورمـز بالنجم للإنسان الغريب النازح، ووظّفه للتعبير عن نفسه حين لا يملك العـودة إلـى الـوطن. وأسهمت الكلمات (بعدت، شطّ، نازح) في تعميق الإحساس بالبعد المكاني. ثمّ جاء البيت الأخير ليبين الدافع وراء ذلك الضيق وهو الغربة في الفسطاط – من ناحية، والحنين إلى العراق – من ناحية أخرى.

---

(١) أبو نواس، ديوان أبي نواس، شرح وضبط وتقديم علي فاعور، ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٥٣٧.

وكثيراً ما يمزج أبو نواس بين الحنين إلى الوطن والحنين إلى مجالس الأنس والشرب، كيف لا وهي جزء منه، وهو في مصر شعر بفقدان ما اعتاده في بغداد حيث الوجوه الحسان، والجواري، والغلمان، وبيوت القيان، والقصور، والأنهار، ومجالس اللهو والشرب، قال[١]:

ذكــرَ الكَــرْخَ نــازحُ الأوطــانِ … فــصَبَا صَــبْوَةً ولاتَ أوانِ[٢]
ليسَ لــي مــسعدٌ بمِــصرَ علــى الــشَّوْ … قِ إلــى أوجُــهٍ هنــاكَ حِــسانِ
نــازِلاتٍ مــنَ الــسَّراةِ فكرْخــا … يا إلى الــشّطِّ ذي القُــصُورِ الــدّواني[٣]
إذْ لِبــابِ الأميــرِ صــدرُ نَهــاري … ورَواحــي إلــى بُيُــوتِ القِيــانِ
واغْتِفــالي المــولى لأخْــتَلِسَ الغَمــ … ــزَةَ ممَّــنْ أُحِبُّــهُ بالبَنــانِ
واعتِمالي الكؤوسَ فــي الــشَّرْبِ تــسعى … مُترَعــاتٍ كخــالِصِ الزَّعفــرانِ[٤]

وهكذا فقد تنقَّل ببراعة بين الذكريات التي تربطه بعلاقة وثيقة مع كرخ بغداد، فشكَّل بذلك لوحةً فنيةً، استطاع من خلالها أن يصوّر مشاهد مازالت عالقة بذهنه. وفي هذا دليل على ارتباط الحنين إلى الوطن بالماضي.

وفي مصر حين تعبث الغربة بمشاعر أبي نواس، يشتاق إلى بغداد، ويحنّ إلى أصدقائه في مجالس اللهو والأنس، فتراه يدعو لها بالسقيا، حاله في ذلك حال شعراء الحنين الذين أحبوا أوطانهم وأخلصوا لها، يقول[٥]:

---

(١) أبو نواس، ديوانه، ص٥٥٧، ٥٥٨.
(٢) صبا: حنّ ومال. صبوة: الميل إلى الهوى.
(٣) السراة: سلسلة جبال تصل ما بين أقصى اليمن والشام. كرخايا: نهر ببغداد.
(٤) مترعات: مفردها مترعة، أي مملوءة. الزعفران: صبغ معروف وهو من الطيب.
(٥) أبو نواس، ديوانه، ص٣٣٥، ٣٣٦.

سقياً لبغدادَ وأيّامِها ... إذْ دهرُنَا نطْويهِ بالقَصْفِ[١]
معْ فِتيةٍ مثْل نجومِ الدّجى ... لم يُطْبَعُوا يوماً على خَسْفِ[٢]

وكثيرٌ من الشعراء الذين قدموا بغداد من أماكن أخرى، أحبوها وعاشوا فيها، فإذا غادروها أو ابتعدوا عنها حنّوا إليها وتشوقوا أهلها، فهذا أشجع السُّلمي (ت٢٠٠هـ) قدم من اليمامة ونشأ في البصرة، ثمّ انتقل إلى بغداد وعاش فيها زمناً، وما إن غادرها إلى اليمن حتى حنّ إليها وإلى أهلها، قال [٣]:

ألا ليت حيّاً بالعراقِ عهدتُهمْ ... ذوي غِبطةٍ في عيشهم ولَيانِ[٤]
يرونَ دموعي حينَ يشتملُ الدُّجى ... عليَّ وما ألقى من الحَدَثانِ[٥]
إذن لرأوا جسماً أضرَّ به الَهوَى ... وعَيْنَ معنّىً جَمَّةَ الهَمَلانِ[٦]
أمن بئرِ ميمون يحنُ صَبابةً ... إلى أهلِ بغدادَ وتلكَ أماني[٧]
بعدت وبيتِ الله ممن تحبه ... هواكَ عراقيٌّ وأنتَ يماني
إذا ذُكِرتْ بغدادُ لي فكأنما ... تحرَّكَ في قلبي شَباةُ سِنانِ[٨]

(١) نطويه: نمضيه. القصف: اللهو.
(٢) الخسف: النقصان والهوان.
(٣) أشجع السلمي، أشجع السلمي حياته وشعره، خليل بنيان الحسون، ١٣٠١هـ، ١٩٨١م، دار المسيرة، بيروت، ص٢٦٧.
(٤) الغبطة: حسن الحال. ليان: أي رخاء ونعيم.
(٥) يشتمل: يلتف. الدجى: سواد الليل. الحدثان: صروف الدهر ونوائبه.
(٦) معنّى: متعب. جمَّة: كثيرة. الهملان: البكاء، يقال هملت عينه أي فاضت وسالت.
(٧) بئر ميمون: بئر بمكة.
(٨) شباة: طرف. سنان: سنان الرّمح حديدته لصقالتها وملاستها.

تكشف الأبيات الثلاثة الأولى عن حالة الحزن والانكسار التي أصابت الشاعر حين فارق بغداد وأهلها، وما ترتّب على ذلك من الضعف والتعب، من خلال كثرة البكاء والشكوى، وقد استحضر الدموع وسيلةً فنيةً بوصفها علامة وفاء للعراق وأهله، ومن ناحية أخرى وجد فيها تنفيساً لما يلاقيه من صروف الدهر، وتخفيفاً لمشاعر الألم واللوعة.

ويوحي الاستفهام (أمن بئر ميمون يحن...) بتعجّب الشاعر من نفسه حينما شعر بالحنين برغم البعد المكاني الشاسع، كما أسهم في تعميق الإحساس بانقطاع الاتصال بينه وبين الأهل، ويعدّ تكرار العبارات (حيّاً بالعراق، أهل بغداد، هواك عراقي، بغداد) دليلاً واضحً على ارتباطه الوثيق بمن في الوطن.

وتأتي الصورة في البيت الأخير (...فكأنّما تحرّك في قلبي شباة سنان)؛ لتعبِّر عمّا يصيب الإنسان الغريب من ألم وحرقة، عندما يذكر له اسم الوطن.

وهذا يحيى بن المبارك اليزيدي (ت٢٠٢هـ)، رحل من بغداد إلى مكّة؛ للتعبّد والتقرّب إلى الله تعالى، فأقام فيها مدّةً من الزمن، ولكن برغم هذه الغاية الدّينية النبيلة فإنّه أحسّ بالغربة، وسرعان ما شعر بالحنين إلى وطنه العراق واشتاق إلى أهله وأحبّته، فعاد مسرعاً إلى وطنه، وانظر إليه كيف يجعله الحنين يحثّ الإبل متعجّلاً في العودة إلى الأحبّة، كما أنّه وظّف الرِّياح وسيلةً فنيّةً؛ تنقل إليه رائحة الأحبة، فلا تعترضها الرّمال والجبال، فتريحه وتخفّف عنه أشجانه وأحزانه، قال(١):

يَا فَرْحَتَا إذْ صَرَفْنَا أَوْجُهَ الإِبِلِ   نَحْوَ الأَحِبَّةِ بِالإِزْعَاجِ وَالعَجَلِ(٢)

---

(١) اليزيديون، شعر اليزيديين، جمع وتحقيق محسن غياض، ١٩٧٣م، مطبعة النعمان، النجف، ص٦٩، ٧٠.

(٢) صرفنا: وجّهنا. الإزعاج: القلق ونقيض الإقرار.

نَحُثُّهُنَّ وَلا يُونِيْنَ مِنْ دَأَبٍ ... لَكِنَّ لِلشَّوْقِ حَثَّاً لَيْسَ لِلإِبِلِ[(١)]

يَا نَائِيَاً قَرُبَتْ مِنْهُ وَسَاوِسُهُ ... أَمْسَى قَرِيْنَ الهَوَى وَالشَّوْقِ وَالوَجَلِ

إِنْ طَالَ عَهْدُكَ بِالأَحْبَابِ مُغْتَرِبَاً ... فَإِنَّ عَهْدَكَ بِالتَّسْهِيْدِ لَمْ يَطُلِ[(٢)]

أَمَا اشْتَفَى الدَّهْرُ مِنْ حَرَّانَ مُخْتَبَلِ ... صَبٍّ الفُؤَادِ إِلَى حَرَّانَ مُخْتَبَلِ[(٣)]

عِشْ بِالرَّجَاءِ وَأَمِّلْ قُرْبَ دَارِهِمُ ... لَعَلَّ نَفْسَكَ أَنْ تَبْقَى مَعَ الأَمَلِ

تَهْوَى العِرَاقَ وَمَا فِيْهِ لَنَا شَجَنٌ ... إِلاَّ التَّقَرُّبَ مِنْ كُتُبٍ وَمِنْ رُسُلِ

وَتَسْتَرِيْحُ إِلَى رِيْحٍ مُؤَدِّيَةٍ ... رَيَّا الأَحِبَّةِ تَأْتِيْنَا عَلَى مَهَلِ[(٤)]

إِذَا جَرَتْ لَمْ يَعُقْهَا أَنْ تُبَلِّغَنَا ... نَسِيْمَهُمْ عِرْضُ رَمْلٍ لا وَلا جَبَلِ[(٥)]

وهذا أبو محمد القاسم بن يوسف (ت٢٢٠هـ) يرحل من بغداد إلى شيراز[(٦)]، ولكنه ما إن يغادر الوطن، ويفارق الأهل والأصدقاء، حتى يملكه الحنين والشوق إلى وطنه العراق ومدينته بغداد، وهو لا تطفئ أشواقه وحنينه التّحيات والرسائل التي تصل إليه منهم، برغم ما يجده فيها من متعة وتخفيف لألم الغربة ولوعة الفراق، قال[(٧)]:

ألا هلْ إلى وِرْدِ العراق سبيلُ ... بحيث الأَخلاءُ الجميع حلولُ

---

(١) نحثهنّ: نستعجلهنّ، من الحثّ وهو الإعجال. يونين: يتعبن ويضعفن. دأب: الدأب هو السَّوق الشديد للإبل.

(٢) التسهيد: قلّة النّوم.

(٣) حرّان: عطشان. مختبل: الذي اختبل عقله فجنّ، وقد خبله الحزن.

(٤) ريّا: الريح الطيبة، وريا كلّ شيء رائحته الطيبة.

(٥) عِرض: العِرْض الوادي، وعِرض كلّ شيء ناحيته، العَرْض هو الجبل وقيل سفحه.

(٦) شيراز: بلد عظيم مشهور معروف وهو قصبة بلاد فارس.

(٧) الصولي، أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، عني بنشره ج. هيورث. دن، ط٢، ١٤٠١هـ، ١٩٨٢م، دار المسيرة، بيروت، ص١٩٠، ١٩١.

تقطعتِ الأسبابُ إلا تحيةً ... على النأي يهديها إليكَ رسولُ
وقلَّ غَناء عنْ أخي الشوقِ والهوَى ... صحائف لا يشفى بهن غَلِيْلُ
على أن فيها متعةً وتَعِلَّةً ... يراح لها ذو لَوْعَةٍ وخليلُ(١)
تبدلت من بغدادَ شيراز منزلا ... بلاد وُعُورٌ ما بهن سهولُ
على سَعَفاتٍ من بلادٍ شوامخ ... وأهلٍ على شطِّ الفراتِ نزولُ
بأرضِ دِمَاث بين قصر وجنة ... تفجرُ فيها أعينٌ وسيولُ(٢)
إذا ما رآها ناظر حارَ طَرْفُه ... فردَّ إليهِ الطرْف وهوَ كليلُ(٣)
بها زَهْرة الدُّنْيا وللدِّين زهرةٌ ... ومكتسبٌ للطالبينَ جَميلُ

بدأت القصيدة بأمنية استولت على ذهن الشاعر وارتبطت بالوطن (المكان والإنسان والماضي)، وهذا ما يفيده الاستفهام (ألا هل إلى ورد العراق سبيل..)، كما أنَّ الاستفتاح (ألا) يوحي برغبة شديدة في العودة إلى العراق.

ثمّ يتذكّر القاسم نقلة نوعية في حياته، حين ترك بغداد ورحل إلى شيراز، ويعقد مقارنة بينهما يذكر فيها مساوئ شيراز ومحاسن بغداد، يظهر من خلالها المفارقة بين الوطن وغيره، وتوحي العبارة (بلاد وعور ما بهنّ سهول) بحالة الجدب، وقلّة الخير والعطاء، وصعوبة العيش بعيداً عن أرض الوطن، أمّا العبارات (بلاد شوامخ، شطّ الفرات، بأرض دماث بين قصر وجنّة، تفجّر فيها أعين وسيول، ومكتسب للطالبين جميل) فتوحي بحالة من الخصب والخير والعطاء.

(١) تعلة: ما يتلهى به. لوعة: وجع القلب من الحزن والحب.
(٢) دماث: مفردها دمثة، وهي السهول من الأرض.
(٣) حار: رجع إليه. الطرف: البصر. كليل: ضعيف.

ويكشف هذا عدم قدرة الشاعر على التكيف في البلاد الجديدة، كما يعكس إحساساً كبيراً بخيبة الأمل، وشعوراً بالندم والحسرة على ترك بغداد.

ويتابع القاسم حنينه إلى الوطن بأبيات رقيقة، يشكو فيها فراق الأحبّة في بغداد، وطول الليل في بلاد الغربة، ويحاول أن يلتمس السلوان فلا يستطيع، وهو برغم بعده عمّن يحب إلا أنّ نفسه عندهم، فجسمه في الغربة وروحه في الوطن. وقد اتبع في هذه الأبيات نهج شعراء الحنين الأوائل في وسائلهم الفنية وصورهم، حين استدعى الدّموع والحمام؛ ليعبِّر عن حنينه، قال(١):

دعاك ببغداد هواك وأسبلت ... مدامع منها قاطِرٌ وهمُولُ(٢)

وشاقك من عِجلٍ تعجل لوعة ... ومالك عن ذهْلٍ هناك ذُهُولُ(٣)

إذا عرض السُّلْوان في الفكر عنهم ... أتاه جوى بين الضلوع دخيلُ

تطاول هذا الليل بعد تقاصر ... وليل أخي البلوى عليه طويلُ

وغرَّد قُمْريٌّ على فرع ضالة ... لهُ بين أفنان الغصون هَديِلُ

إذا ما دعا شَجواً بكيتُ صبابة ... كلانا له جنحَ الظلام عويلُ

أفارق من أهوَى ونفسيَ عندَه ... لعمركَ إني عندها لجهولُ

فإنْ يَقْدِرِ الله اجتماعا فلنْ يرى ... لي الدهرَ من بعد الحلول رحيلُ

انتقل الشاعر في المقطع السابق ليفصح عن ذاته التي تسيطر عليها مشاعر الحزن والحنين، فاستحضر الدّموع وسيلةً فنيةً؛ وعبّر بها عن وفائه وإخلاصه لمن يحب، كما وجد فيها تنفيساً لما يكابده شوق وألم. وتعكس الكلمات (مدامع، لوعة، جوى، الليل، البلوى، صبابة،

---

(١) الصولي، أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق. ص١٩٠، ١٩١.

(٢) أسبل: هطل.

(٣) مال: عدل. ذهول: ترك الشيء على غفل، أو نسيانه لشغل.

عويل) الحالة النفسية للشاعر، من القلق وعدم القدرة على النسيان. وأسهم الطباق (قاطر، همول) في تعميق الشعور الدائم بالضيق.

وقد استحضر الشاعر أيضاً الحمام وسيلةً فنيةً؛ يثير مشاعر الحنين الكامنة في نفسه، ويشاركه البكاء والعويل، وهذا ما يوحي برغبة في إظهار المزيد من الحزن والتفجع لفراق الوطن والأحبة. كما عبّر في البيت الأخير عن إيمانه بقضاء الله وقدره، وأكّد من خلال أسلوب الشرط رغبته الصادقة في العودة إلى الوطن والاستقرار على أرضه، كما استطاع من خلال الطباق (حلول، رحيل) أن يعمق معنى العدول عن السفر والرحيل.

وحينما ينتقل القاسم بن يوسف إلى مرو[١]، تظلُّ مشاعر الشوق والحنين إلى الوطن والأهل مسيطرةً على قلبه وعقله، وهو يوظف البرق والناقة في حنينه كما كان يفعل شعراء الحنين قبل الإسلام في صورهم ووسائلهم الفنية، قال يحنّ إلى العراق والأهل[٢]:

طربتَ وشاقتك البُروقُ اللوامعُ ... بأكناف مروٍ والهوى بكَ نازِعُ[٣]

تحنُّ إلى أهلِ العراق ودونهمْ ... بساطٌ من الغبراء للرَّكب واسعُ[٤]

ومجهولةٌ قفرٌ يحارُ بها القطا ... وشاهقة وعر وبيد بلاقعُ[٥]

أقول وأشطان النوى قد تقاذفت ... بنا والمهارَى خاشعات خواضعُ[٦]

---

(١) مرو: مرو العظمى وهي مرو الشاهجان أشهر مدن خراسان وقصبتها.
(٢) الصولي، أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ص١٨٤.
(٣) طربت: الطرب هو الحزن والشوق.
(٤) الغبراء: الأرض لغبرة لونها أو لما فيها من الغبار .
(٥) قفر: القفر الخلاء من الأرض. يحار: يتيه ولا يهتدي لسبيله. القطا: طائر معروف سمي بذلك لثقل مشيه. وعر: المكان الحزن، ضدّ السهل. بيد: المفازة والفلاة. بلاقع: الأرض القفر التي لا شيء بها.
(٦) أشطان: حبال. المهارى: الإبل.

كفـــى حزَنـــا أن الأحبـــة جيـــرةٌ وأنـــت غريـــبٌ نـــازح الـــدَّارِ شاســـعُ

هلِ الـشمل مـن بعـدِ التفـرُّق جـامع وهـل عيـشنا بعـدَ التـولّي مرَاجـعُ

نَعـمْ عقـب الأيـام تَـسهل بـالفتى وإن وعـرَت يومـاً عليـه المطـامعُ

فسل مِ العلـي لا تقعـدنْ خيفـةَ الـردى فـإنَّ قـضاءَ الله لابـدَّ واقـعُ

استدعى الشاعر في الأبيات السابقة البرق وسيلةً فنيةً، ووظفها في إثارة مشاعر الشوق والحنين، فحين يلمع البرق يؤثّر في نفسية الإنسان الغريب، فيذكّره وطنه وأهله. وقـد صـرّح الشاعر بحنينه إلى أهل العراق، وصعوبة العودة إليهم، وتأتي الكلمات (الغبراء، واسع، مجهولة، قفر، شاهقة، وعر، بيد، بلاقع) لتعبر عن الإحساس باليأس والضياع في تلـك الأرض المقفـرة الواسعة، كما تعكس خوف الشاعر من الرجوع إلى الوطن، وهو يوظّف صورة القطا التائهة في قوله: (ومجهولة قفر يحار بها القطا) في تعميق الشعور بالـضياع والخـوف مـن المجهـول. واستدعى كذلك صورة الناقة الخاضعة في قوله: (والمهارى خاشعات خواضع) ليصور حاله من خلالها، ويسقط عليها ما يعتريه من ذهول وخضوع.

وتكشف الأبيات عن حوار داخلي كان يدور في ذات الشاعر من خلال الفعـل (أقـول) حول إمكانية العودة إلى الوطن والأهل، بالرّغم من الفارق الشاسع بينه وبيـنهم، ثـمَّ يحـاول التخفيف من يأسه وحزنه من خلال أسلوب الاستفهام (هل الشمل...جامع؟ هل عيشنا...مراجع؟) وحرف الجواب (نعم)، ويعكس هذا محاولة التجلد والصبر على ألم البعد والفراق.

ويعكس البيت الأخير لجوء الشاعر إلى الله تعالى، واستسلامه لقضائه وقـدره، حـين حاول التخلص من خوفه، وعزم على الرجوع إلى الوطن والأهل.

وهذا محمد بن أميّة (ت٢٣٠هـ)، عندما فارق العراق لم يقدر على التجلّد وتثبيت النفس فبكى، وظلّت دموعه تنهال من عينيه غزيرةً، وما شُفِيَت عيناه من الحزن وما ارتاح قلبه من الفراق، حتى عزم الرجوع إلى وطنه، ولكنه أحسّ أنّه يسير ببطء لشدة شوقه وحنينه. وانظر إليه كيف وظّف الرمز الديني (البُرَاق) في التعبير عن شدة السرعة والعجلة؛ مما يوحي بفقدانه الصبر على الفراق، وحنينه الشديد إلى وطنه، وعاطفته الصادقة تجاهه، قال(١):

بَكَيْتُ مِنَ الفِرَاقِ غَدَاةَ وَلَّتْ ... بِنَا بُزْلُ الرِّكَابِ عَنِ العِرَاقِ(٢)

فَمَا رَقَأَتْ دُمُوْعُ العَيْنِ حَتَّى ... شَفَى قَلبِي العِرَاقُ مِنَ الفِرَاقِ(٣)

غَداً أَحْدُو مَطَايَا الشَّوْقِ مِنِّي ... بِسَوْقٍ لا يُقِيمُ عَلَى الرِّفَاقِ

وَأَسْتَبْطِي إِلَى بَغْدَادَ سَيْرِي ... وَلَوْ أَنِّي حُمِلْتُ عَلَى البُرَاقِ(٤)

وكثيراً ما تتشابه المعاني عند شعراء الحنين في العصر العباسي، كبكاء المدن عند فراقها، وهم غالباً ما يفارقونها مضطرين لا راغبين، وإذا ما ذكرت أمامهم تقطعت أنفسهم حنيناً إليها. وهذا إسحاق الموصلي (ت٢٣٥هـ) يخرج مع الخليفة الواثق (ت٢٣٢هـ) إلى الصالحية(٥)، وهناك يشتاق إلى أهله ويحن إلى مدينته بغداد، قال(٦):

---

(١) السرّاج القارئ، مصارع العشّاق، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، دار بيروت، دار النفائس، بيروت، ١/ ٢٥٥.

(٢) بزل: من بزل البعير إذا أتمّ السنة الثامنة وطعن في التاسعة. الركاب: الإبل التي يسار عليها.

(٣) رقأت: جفت وانقطعت.

(٤) البراق: دابّة ركبها الرسول – صلى الله عليه وسلم– ليلة الإسراء والمعراج، وهي مشتقّة من البرق، وقد سميت بذلك لنصوع لونها، وقيل لسرعتها.

(٥) الصالحية: محلة ببغداد.

(٦) إسحاق الموصلي، ديوان إسحاق الموصلي، جمع وتحقيق ماجد أحمد العزي، ١٩٧٠م، مطبعة الإيمان، بغداد، ص١١٦.

أتبكـــي علـــى بغـــدادَ وهـــي قريبـــةٌ ... فكيف إذا مـــا ازددتَ منهـــا غـــداً بُعْـــدَا

لعَمْرُك مـــا فارقـــتُ بغـــدادَ عـــن قِلـــىً ... لَوَ انّـــا وجـــدنا عـــن فِـــراقٍ لَهـــا بُـــدّا

إِذا ذكــــرتْ بغــــدادَ نفــــسي تَقطَّعــــتْ ... من الشَّوق أَو كادت تمـــوت بِهـــا وَجْـــدَا

كفى حَزَناً أن رُحْـــتُ لـــم أســـتطع لَهـــا ... وَدَاعـــاً ولـــم أُحْـــدِثْ بـــساكنها عهـــدا

إنّ بكاء الشاعر على بغداد، بالرغم من قربه منها، يدلّ على التصاقها بنفـسه، وتعلقـه الشديد بها، ثمّ إنّ تكرار اسم المدينة (بغداد) ثلاث مرات في الأبيات الثلاثـة الأولـى يعكـس ارتباطه بالمكان.

ويرتبط الحنين إلى الوطن – غالباً – بالحنين إلى الأهل والأحبة والأصدقاء؛ وذلك لأنهم جزءٌ لا يتجزّأ منه، فتزداد صلة الإنسان به قوَّةً، وعاطفته صدقاً وحرارةً. وفي أبيـات أخـرى يشكو فيها إسحاق الموصلي إلى الخليفة الواثق، شوقه وحنينه إلى زوجـه وأولاده، فيستحـضر فيها طقوس الوداع، ليعبِّر عن حنينه إليهم، قال(١):

ضَـــنَّتْ سُـــعادُ غَـــدَاةَ البَـــيْن بـــالزَّادِ ... وَأَخلفَتْـــكَ فَمَـــا تُـــوفِي بِمِيْعَـــادِ

مـــا أَنْـــسَ لا أَنْـــسَ شَـــيئاً إِذ تُودِّعُنـــا ... وَالْحُـــزْنُ مِنْهَـــا وَإِنْ لَـــمْ تُبْـــدِهِ بَـــادِي

لَمَّـــا أَمَـــرْتَ بإِشْخاصِـــي إِليـــكَ هَفَـــا ... قَلْبِـــي حَنِيْنَـــاً إِلـــى أَهْلِـــي وَأَوْلادِي

ويزداد حنين الإنسان إلى وطنه كلّما ابتعد عنه، ولكنّ إسحاق الموصلي على عكس ذلك؛ فحين يقترب من دياره، وتأخذ معالمها بالوضوح؛ يزداد انفعاله، ويهيج حنينه؛ ولعلّ السبب في هذا شوقه إلى أبنائه الصغار، مما يعكس صدق العاطفة، قال(٢):

---

(١) إسحاق الموصلي، ديوانه، ص ١٠٩.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٣.

طربتَ إلى الأُصَيْبِيَة الصِّغار | وهاجكَ منهمُ قربُ المَزَارِ
وكل مسافرٍ يزدادُ شوقاً | إذا دَنَتِ الدّيارُ من الديارِ

وحين يخرج إسحاق الموصلي من العراق، يشكو إلى صاحبه الزبير بن دحمان حنينه إلى الوطن وشوقه إلى الأهل والأحبة، وقد اتبع نهج الشاعر العربي قبل الإسلام في وسائله وصوره، حين استدعى الدّموع وسيلةً فنيةً تخفِّف من حزنه وألمه، ووظّف الحمام مثيراً لأشواقه وأشجانه، فقال(١):

أَسعِدْ بدَمْعِك يا أبا العَوَّامِ | صَبّاً صريعَ هَوىً ونِضْوَ سِقامِ
ذَكَرَ الأحبَّةَ فاستُجِنَّ فهاجه | للشوق نوحُ حمامةٍ وحَمَامِ
لم يُبدِ ما في الصَّدْر إلاَّ أنَّه | حيَّا العِراقَ وأهلَه بِسلامِ
ودَعاه داعٍ للهَوَى فأجابَه | شَوقاً إليه وقادَه بزِمامِ(٢)

وكما يحنّ الإنسان إلى وطنه بمن فيه من أهل وأحبة وأصدقاء، فإنه يحنّ إليه بما فيه من نبات وأشجار وهواء، فهذا إسحاق حينما كان مع الخليفة الواثق في مدينة سامراء(٣)، يذكر شوقه وحنينه إلى بغداد حيث الأهل والأبناء، ويذكر رائحة نباتاته الزّكية التي تحملها ريح الجنوب صباحاً، فتثير حنينه إلى بغداد، قال(٤):

يا حَبّذا ريحُ الجَنوبِ إذا بدتْ | في الصُّبح وهي ضعيفةُ الأنفاسِ
قد حُمِّلتْ بردَ النَّدَى وتَحمّلَتْ | عَبَقاً من الجَثْجَاثِ والبَسْبَاسِ(٥)

---

(١) إسحاق الموصلي، ديوانه، ص١٨٦، ١٨٧.
(٢) زمام: حبل.
(٣) سامراء: مدينة بين بغداد وتكريت على شرقي دجلة.
(٤) إسحاق الموصلي، ديوانه، ص١٤٤.
(٥) الجثجاث: شجر ينبت بالقيظ له زهرة صفراء طيبة الريح. البسباس: نبات طيب الريح.

مـــاذا تَهِـــيج مـــن الـــصَّبَابة والْهَـــوَى　　　للـــــصَّبِّ بعـــــد ذهولـــــه واليـــــاسِ[١]

وهذا دِعبل الخزاعي (ت٢٤٦هـ) عندما هجا الخليفة المعتصم (ت٢٢٧هـ) وهـرب إلـى أسوان[٢] في مصر، سرعان ما عبثت بقلبه مشاعر الغربة، وأحسّ بالضيق والانكسار في ذلـك المكان البعيد الذي يقصر عنه البرق ويتلاشى فيه الطيف، فحنّ إلى وطنه العراق ومدينته بغداد، وقال[٣]:

وإنَّ امْـــرَأً أَمْـــسَتْ مَـــسَاقِطُ رَحْلِـــهِ　　　بأسوانَ لمْ يتركْ لـهُ الحِـرصُ معلمَـا[٤]

حللـــتُ محـــلاًّ يقـــصُرُ البـــرقُ دونَـــهُ　　　ويعجِـــزُ عنـــهُ الطَّيـــفُ أنْ يتجـــشَّما

وحينما تطول غربته في مصر، وتشتدّ عليه آلام الفراق، وقسوة الابتعاد عـن الـوطن والأهل، يبكي لينفّس عن نفسه هذه الكربة، وتنزل دموعه لتعبّر عمّا يضيق به صدره من حنين إلى وطنه العراق وشوق إلى أهله ببغداد. وهو يوظّف الحوار في نقل شكوى الفراق والـشوق، ويستحضر – فنيّاً– المرأة التي تنتظر زوجها النازح بعيداً عنها، ليعبّر عن حنينه، فيجعل الحنين على لسانها لا على لسانه محاولاً أن يتستر خلفها، وأن يعلّل حنينه بها. وانظر إليه كيف وظّف الطباق (شتيت وجميع، وجدبة وربيع) في تعميق الإحساس بالمفارقة وتقلّبات الـزمن، ورمـز بـ(جدبة) إلى الغربة والنّوى، ورمز بـ(ربيع) إلى جمع الشمل والرجوع إلى الوطن، قال[٥]:

---

(١) الصبابة: الشوق، وقيل رقّته وحرارته. الصَّب: العاشق المشتاق.

(٢) أسوان: مدينة كبيرة وكورة في آخر صعيد مصر وأول بلاد النوبة على النيل في شرقيه.

(٣) دعبل الخزاعي، ديوان دعبل بن علي الخزاعي، شرح حسن حمد، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، دار الكتاب العربي، بيروت، ص١٢٢.

(٤) رحله: الرّحل مركب للبعير والنّاقة.

(٥) دعبل الخزاعي، ديوانه، ص١٨٠.

وقائلـــةٍ لمَّـــا اســـتمرتْ بِهـــا النَّـــوى ومَحْجِرُهـــــا فيـــــهِ دَمٌ ودُمُـــــوعُ[١]
ألـــمْ يـــأنِ للـــسَّفْرِ الـــذينَ تحمَّلـــوا إلى وطـــنٍ قبـــل الممـــاتِ رجـــوعُ؟[٢]
فقلـــتُ ولـــم أَملِـــكْ سَـــوابِقَ عَبْـــرةٍ نَطَقْـــنَ بِمـــا ضُـــمَّتْ عليـــهِ ضُـــلوعُ
تبـــيَّنْ: فكـــمْ دارٍ تفـــرقَ شـــملها وشـــملٍ شـــتيتٍ عـــادَ وهـــو جميـــعُ
كَـــذاكَ اللَّيـــالي صَـــرْفُهُنَّ كمـــا تَـــرَى لِكُـــلِّ أُنـــاسٍ جَدْبَـــةٌ وَرَبيـــعُ[٣]

وقد اشتهرت بغداد بالمتنزهات والبساتين الجميلة التي تشقها الأنهار، فكان لها أثر كبير في شعر الحنين، فهذا الحسين بن الضحّاك الخليع (ت٢٥٠هـ) حين كان في القدس، فـي بـلاد الشام، وقد ذكّرته دياراتها ورهبانها أماكن لذّته وأنسه في العراق، كالكرخ[٤] وديـر مـديان[٥]، يحنّ إلى بغداد، وإلى ما فيها من متنزهات وبساتين، ويمزج بين الحنين إلى الوطن والحنين إلى مجالس الأنس والشرب، كما كان يفعل شعراء اللهو أمثال أبي نواس. وهو في قصيدته الآتيـة يوظف أصوات الرهبان وسيلةً فنيةً تهيج مشاعره، وهذا يُعَدُّ تجديداً في وسائل الحنين وصوره، لم يتناوله الشعراء من قبل، قال يحنّ إلى بغداد ويدعو لها ولساكنيها بالسقيا والرعاية[٦]:

حُـــثَّ المُـــدَامَ فـــإن الكـــأسَ مُتْرَعـــةٌ بِمـــا يَهِـــيجُ دَوَاعِـــي الـــشَّوقِ أحيانـــا[٧]

---

(١) محجرها: محجر العين ما دار بها من العظم أسفل الجفن.
(٢) تحملوا: ذهبوا وارتحلوا.
(٣) صرفهنّ: نوائبهنّ وحوادثهنّ. جدبة: قحط ومحل.
(٤) الكرخ: محلة ببغداد وتسمى كرخ بغداد وكرخ العراق.
(٥) دير مديان: دير يقع على نهر كرخايا قرب بغداد وهو من المتنزهات.
(٦) الحسين بن الضحاك، ديوان الحسين بن الضحاك، تحقيق جليل العطية، ٢٠٠٥م، منشورات الجمل، بغداد، ص١٧٧، ١٧٨.
(٧) حُثّ: الحثّ هو الاستعجال. المدام: الخمر. مترعة: مملوءة.

إنِّـــي طَربــــتُ لرهبــــانٍ مجاوبــــةٍ   بالقــدسِ بعــدَ هُــدوٍّ اللَّيــلِ رُهبانــا[١]

فاســتنفرتْ شَــجناً منــي ذكــرتُ بــهِ   كــرخَ العِــراقِ وأَحزانــاً وأشــجانا

فقلــتُ والــدَّمعُ مــن عَينَــيَّ مُنحــدِرٌ   والــشَّوقُ يَقــدحُ فــي الأحــشاءِ نيرانــا

يا دَيْــرَ مِــدْيانَ لا عُرِّيــتَ مــن سَــكَنٍ   ما هجــتَ مــن سَــقمٍ يــا ديــرَ مــديانا

هل عنــد قَــسِّكَ مــن عِلــمٍ فيُخبرَنــي   أم كيف يُسْعِدُ وجــهُ الــصَّبْرِ مَــنْ بانــا

سَــقْياً ورَعْيــاً لكَرْخايــا وســاكِنِها   بــينَ الجُنينــةِ والرَّوحــاءِ مــن كانــا[٢]

استطاع الشاعر في الأبيات السابقة أن يعبّر عما يدور في ذاته من أحاسيس، فتراه يقبل على شرب الخمر ويستعجل في طلبها؛ كي يخفف من إحساسه بالحزن والتحسّر، وقــد وظــف صورة (الكأس المملوءة) في التعبير عما يملأ نفسه من شوق وحنين. واستدعى أصوات الرهبان وسيلةً فنيةً؛ جعلها سبباً لتحريك مشاعره، كما استدعى الدموع نتيجةً لما تثيره تلك الأصــوات، وتعبيراً عن عاطفة حزن صادقة لفراق الوطن أهله.

وفي أبيات أخرى للحسين بن الضحاك، يمزج فيها أيضاً بين الحنين إلى مدينته بغــداد، وما فيها من نخيل وأشجار ونباتات طيبة الرائحة، وبين الحنين إلى مجالس اللهــو والــشرب، قال[٣]:

أُحِــبُّ الفــيءَ مــن نخْــلاتِ بــارِي   وجَوْسَــقها المــشيَّدَ بالــصفيحِ[٤]

---

(١) رهباناً: مفردها راهب، وهو المتعبد في الصومعة، وأحد رهبان النصارى.

(٢) كرخايا: نهر ببغداد. الجنينة: قرية ببغداد . الروحاء: قرية من قرى بغداد على نهر عيسى.

(٣) الحسين بن الضحاك، ديوانه، ص٥٧، ٥٨.

(٤) باري: قرية من أعمال كَلْواذى من نواحي بغداد. جوسقها: الجوسق هو القصر أو الحصن. الصفيح: جمعه صفائح، وهي الحجارة العريضة.

ويُعجِبُنـــــــي تنـــــــاوُحُ أَيْكَتَيْهـــــــا إِلـــــيَّ بـــــريحِ حَـــــوْذَانٍ وشِـــــيحِ[١]
ولـــــن أَنْـــسى مَـــصارِعَ للـــسُّكارَى ونادبـــةَ الحَمـــام علـــى الطَّلُّـــوحِ[٢]

(١) أيكتيها: مثنى أيكة، وهو الشجر الكثيف الملتف. حوذان: نبات له زهرة حمراء في أصـلها أصـفر طيـب الطعم. شيح: نبات سهلي له رائحة طيبة وطعم مرّ.
(٢) الطلح: شجر طويل يستظلّ به، لها شوك كثير.

الحنين إلى البَصرة:

البصرة خزانة العرب، وقبّة الإسلام؛ لانتقال قبائل العرب إليها، واتخاذ المسلمين فيها وطناً ومركزاً[١]. والمنسوبون إليها من أهل العلم لا يحصون[٢]. ولعلّ أبرز ما تميزت به هذه المدينة هو بناء القصور الفخمة، وسوق المربد التي أصبحت سوقاً أدبيةً يتناشد فيها الشعراء أشعارهم، بالإضافة إلى بساتينها وأنهارها. وكثر ترديدها على ألسنة شعرائها، وكانوا إذا غادروها حنّوا إليها وإلى أهلها، فقد كانت تربطهم بها علاقة وثيقة؛ فهم أبناؤها وهي مدينتهم ووطنهم، وفيها أهلهم وذكرياتهم الجميلة. وهذا أبو الشمقمق (ت١٨٠ه) عندما غادر البصرة وقصد الأهواز[٣] طلباً للرزق، سرعان ما شعر بالحزن لفراقها، واشتاق إليها وإلى أهله فيها، وهو يوظف صورة الخفّاش الذي لا يبصر في النّهار في التعبير عن حالة الحرج والضيق التي أصابته حين ابتعد عن أهله ووطنه، قال يشكو حنينه[٤]:

أنا بالأهوازِ محزونٌ وبالبصرةِ داري
في بني سعدٍ وسعدٌ حيثُ أهلي وقراري
صِرتُ كالخُفَّاشِ لا أُبْصِرُ في ضَوءِ النَّهارِ[٥]

---

(١) الأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٢٦٥/٢.
(٢) الحموي، معجم البلدان، ٥٢١/١.
(٣) الأهواز: سبع كور بين البصرة وفارس، وسوق الأهواز من مدنها.
(٤) أبو الشمقمق، مختارات من شعره، دراسة وتحقيق كارين صادر، ٢٠٠٣م، وزارة الثقافة، دمشق، ص٧٧.
(٥) الخُفَّاش: طائر يطير بالليل يشقّ عليه ضوء النّهار.

وهذا أبو عيينة بن أبي عيينة (توفي بعد ١٩٨هـ)، أحد أبناء البصرة، وهو يراها جنّة لا يعدلها شيء عنده، أحبّها فاتخذها وطناً له، قال يتشوّق إليها[١]:

يـــا جَنَّـــةً فاقَـــتِ الْجِنـــانَ فَمـــا   تَبْـــــــلُغُها قيمـــــــةٌ ولا ثَمَـــــــنُ

أَلِفْـــــــتُها فاتَّخَـــــذْتُها وَطَنـــــاً   إِنَّ فُـــــؤادِي لأَهْلِهــــــا وَطَـــــنُ

وهذا محمد بن وهيب الحميري (ت٢٢٥هـ) يحنّ إلى البصرة وأهلها، ويتمنّى الرجوع إليها، وتُعَدُّ أبياته هذه حنيناً صريحاً إلى الحياة الحضرية في البصرة، قال[٢]:

أَلاَ هـــل إلـــى ظِـــلّ العَقِيـــق وأهلِـــهِ   إلـــى قَـــصْر أوسٍ فَـــالْحَزِيزِ مَعـــادُ[٣]

وهَـــلْ لـــي بأكنـــافِ المُـــصَلَّى فَـــسَفْحِهِ   إلـــى الـــسُّورِ مَغْـــدىً نـــاعمٌ ومُـــرادُ

فَلَـــم تُنْـــسِني نَهـــرَ الأُبُلَّـــةِ نِيَّـــةٌ   ولا عَرَصـــــاتِ المرْبِـــــدَيْنِ بِعـــــادُ[٤]

هنالـــكَ لا تَبْنِـــي الكَواعِـــبُ خَيْمَـــةً   ولا تَتَهـــــادَى كَلْـــــثَمٌ وسُـــــعادُ

إن تكرار الاستفهام في الأبيات السابقة يوحي برغبة الشاعر الشديدة في الرجوع إلى المدينة، ولعلّ التفصيل في ذكر أماكنها ومعالمها الحضارية والطبيعة (العقيق، الحزيز، المربدين، قصر أوس، المصلّى، السور، نهر الأبلة) دليل على رسوخها في نفسه، وارتباطه بها، كما يوحي بحنينه إلى الحياة الحضرية، وهذا ما يؤكده البيت الأخير إذ إنه لا تبنى فيها خيمة، وليس فيها ما يرتبط بحياة البادية.

---

(١) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، جمع وتحقيق عبد القادر الرباعي، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، أمانةعمان، عمان، ص١٨٦.

(٢) السامرائي، شعراء عباسيون، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، عالم الكتب، بيروت، ص٦٩.

(٣) العقيق: ذكر ياقوت عدة أعقة، وهذا عقيق البصرة وهو واد مما يلي سفوان. قصر أوس: قصر بالبصرة ينسب إلى أوس بن زفر. الحزيز: موضع بالبصرة.

(٤) الأبلة: نهر بالبصرة. المربدين: مثنى للمربد وهو مربد البصرة وأشهر محالها.

وهذا عبد الصمد بن الْمُعَذَّل (ت٢٤٠هـ) يحنّ إلى مدينته البصرة، ويستدعي حمام الأيك، ليعبر من خلاله عن حنينه وشوقه، فهو يرى فيما تبديه من أصوات نواحاً وبكاءً يهيج مشاعره ويذكّره بالوطن حيناً، وغناءً عذباً يريحه حيناً آخر، قال[١]:

فإنْ هاجَ نوحُ الأيكِ في رونــقِ الــضُّحى	تــذكرَ محــزونٌ أو ارتــاحَ مُقْــصِرُ[٢]
تجـــاوبْنَ بـــالتَّرجيعِ حتـــى كأنَّمـــا	ترَنَّمَ في الأغـصانِ صَـنْجٌ ومِزْهَـرُ[٣]
مرانـــاةِ مومـــوقٍ وترجيـــعِ شـــائقٍ	فللقلـــبِ ملهـــاةٌ وللعـــينِ مَنْظَـــرُ
وَإنِّـــي إلـــى صـــحنِ العـــذيبِ لتـــائقٌ	وإنِّـــي إليـــهِ بـــالمودةِ أصـــورُ[٤]

(١) عبد الصمد بن المعذل، ديوانه، تحقيق زهير غازي زاهد، ١٩٩٨م، دار صادر، بيروت، ص١٢٠.

(٢) الأيك: الشجر الكثيف الملتف، يقصد حمام الأيك. رونق الضحى: أولها. مقصر: خليّ.

(٣) تجاوبن: تحاورن. الترجيع: الهدير. ترنم: تغنى وحسّن صوته. الصنج: ذو الأوتار. المزهر: العود الـذي يضرب به.

(٤) صحن: الساحة تكون في وسط المكان. العذيب: موضع بالبصرة.

الحنين إلى دمشق:

لم تعد دمشق – بانتهاء العصر الأموي وقدوم العصر العباسي – حاضرة الخلافة، كما لم تعد محط أنظار الشعراء، الذين كانوا يقصدونها مادحين متكسّبين. وانعكس ذلك على شعرائها؛ فأصبحوا يغادرونها إلى مصر وإلى العراق حيث حاضرة الخلافة العباسية بغداد؛ بحثاً عن الرزق، وطلباً للعطايا، ولكن سرعان ما شعروا بالضيق والانكسار، ولم تناسبهم الحياة في هذه البلدان، فأحسّوا بذلّ الغربة والابتعاد عن دمشق والشام حيث الوطن والأهل، وحنّوا إلى ديارهم وساكنيها.

فهذا إبراهيم بن أبي محمد اليزيدي (ت٢٢٥هـ) حينما كان في بلاد الرّوم، أثاره البرق الذي يلمع من نحو بلاد الشام، ويحرّك مشاعره وعواطفه، فيحنّ إلى دمشق ومن بها من الأحبّة، كيف لا وقلبه معلّق بها، قال(١):

مَاذَا بِقَلْبِي مِنْ أَلِيْمِ الخَفْقِ ... إِذَا رَأَيْتُ لَمَعَانَ البَرْقِ

مِنْ قِبَلِ الأَرْدُنِّ أَوْ دِمَشْقِ ... لأَنَّ مَنْ أَهْوَى بِذَاكَ الأُفْقِ

فَارَقْتُهُ وَهُوَ أَعَزُّ الخَلْقِ ... عَلَيَّ وَالزُّوْرُ خِلافُ الحَقِّ

ذَاكَ الَّذِي يَمْلِكُ مِنِّي رِقِّي ... وَلَسْتُ أَبْغِي مَا حَيِيْتُ عِتْقِي

وهذا أحد أبناء الشام، وهو أبو تمام (ت٢٣١هـ)، ولد في قرية جاسم، إحدى قرى دمشق، اضطرته ظروف العيش إلى مغادرتها، فقصد مصر والعراق؛ أملاً في تحقيق طموحاته وآماله، ولكنه شعر بمرارة الفراق وقسوة الابتعاد عن الوطن والأهل، قال يشكو حنينه(٢):

---

(١) اليزيديون، شعر اليزيديين، ص١٣٨.

(٢) أبو تمام، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ط٣، د.ت، دار المعارف، القاهرة، ٢٥٣/٤.

البـــينُ جرَّعنـــي نقيـــعَ الحَنْظَـــلِ والبـــينُ أثكلنـــي وإنْ لـــم أثكـــلِ[١]

مـــا حـــسرتي أنْ كـــدتُ أقـــضي إنمـــا حَـــسرَاتُ نَفْـــسي أنَّنـــي لـــم أفْعـــلِ[٢]

نقِّلْ فؤادكَ حيـــثُ شـــئتَ مـــن الْهَـــوَى مـــــا الْحُـــــبُّ إلا للحبيـــــبِ الأولِ

كـــمْ منـــزلٍ فـــي الأرضِ يألفـــه الفتـــى وحنينُـــــــه أبـــــــداً لأوَّلِ منـــــــزلِ

وتكشف الأبيات السابقة عن مدى الألم والضيق الذي أحسّ به الشاعر بسبب فراق الأهل والأحبة. وتسهم صورة (نقيع الحنظل) في تعميق الشعور بمرارة الغربة. وتأتي المفارقة بين الشعور بالموت مع عدم الموت لتعكس الحالة النفسية التي أصابته من الاكتئاب والانفصال عن العالم المحيط به.

بعد ذلك يبدأ الشاعر يلوم نفسه، بالإفصاح عن شعوره بالذنب والندم لمغادرة الوطن، ثمّ يصعّد هذا الشعور حينما تصبح الحسرة الواحدة حسرات متعددة على عدم الموت في اللحظة التي فارق فيها الشام وأهلها. ولعله أراد أن يقول: إنّ الغربة مساوية للموت.

وقد لخّص الشاعر تجربته في التنقل بين البلدان بحكمة خالدة، لا يعرفها إلا من ذاق مرارة الغربة، حينما صرّح بحنينه جاعلاً من الحبيب الأول رمزاً ومعادلاً للوطن، من خلال التشبيه الضمني، فكما أن الحبّ في صفائه ونقائه يكون للحبيب الأول، فإنّ الحنين الحقيقي يكون للوطن الأول، حيث الولادة والنشأة، والأرض التي مُنِحَ الإنسان عليها الحبّ الأول.

وحين رحل أبو تمام إلى مصر، بقي الحنين مسيطراً على مشاعره، فكلّ ما يتمناه أن يرى ساكنها، ولكن أنّى يكون له ذلك، فيلجأ إلى الطيف والخيال، ويستدعي طيف المحبوبة

(١) البين: الفراق. جرّعني: التجرّع الشرب قليلاً قليلاً. نقيع الحنظل: شراب ينبذ فيه ثمار الحنظل، وهو ثمر مرّ. أثكلني: أماتني وأهلكني. أثكل: أموت.

(٢) حسرتي: ندمي، والحسرة أشدّ الندم. أقضي: أموت.

وسيلةً فنيةً؛ تبعث في النفس إحساساً بالراحة واللذّة، وهذا ما لم يوظّفه الشعراء في حنينهم من قبل، وهو مما يعدّ تجديداً فنياً في صور الحنين ووسائله، قال(١):

زَائِـــرٌ زَارَنَـــي فَهـــاجَ خَيَـــالا	كنـــتُ لَـــوْلاهُ أَســـوأَ النَّـــاسِ حَـــالا
فَتمتَّعــــتُ مِـــنْ غَـــزالٍ وحاشَـــى	ذلـــكَ الـــشَّخصَ أَنْ يكـــونَ غَـــزَالا
كيـــفَ أَرجُـــو لِقـــاءَ ســـاكِنِ دمـــشـ	ـــق(٢) بمـــصرٍ لقَـــدْ رَجُـــوْتُ ضَـــلالا
مثَّلَتْـــهُ المُنَـــى لِعَيْنَـــي وفِكْـــري	ولِقَلْبِـــي حتَّـــى قَبِلـــتُ المُحَـــالا(٣)
مـــا أَرَانـــي أَزَالُ نَـــصْبَ خَيَـــالِ	طَـــارِقٍ أَو يَـــصِيرَ جِـــسْمي خَيَـــالا(٤)

لقد استطاع أبو تمام في الأبيات السابقة أن يوظّف طيف المحبوبة الذي يزوره ليلاً في إثارة خياله وتحريك مشاعره، ولعلّه وجد في الطيف والخيال ما يخرجه من حالة الكآبة والشعور بالوحشة والتعاسة، التي أصابته بعيداً عن محبوبته ووطنه دمشق، وبرغم يقينه بأن هذا الطيف الزائر خيال لا حقيقة، فإنّه وجد متعةً في استحضاره.

ويكشف الاستفهام (كيف أرجو لقاء...) عن حرقة وألم أحسّ بهما الشاعر بسبب الفارق المكاني الشاسع، كما يوحي بالضيق الذي أصابه في مصر، والحنين إلى دمشق.

لقد سيطرت على الشاعر أمنية ملكت عليه عقله وجعلته يقبل المستحيل، فأمله في رؤية المحبوبة، جعله يتخيلها في عينيه وتفكيره، وهو بذلك يصور تأثير الفراق في نفسيته، فشدة الشوق والحنين دفعته إلى إيجاد وسيلة تسعفه وتهوّن عليه.

---

(١) أبو تمام، ديوانه بشرح الخطيب التبريزي، ٢٥٤/٤.
(٢) في الديوان (بغداد) و(دمشق) في: ابن المرزبان، الشوق والفراق، ص١٢٥.
(٣) مثّلته: صوّرته حتى كأنه ينظر إليه. المنى: جمع منية، وهي ما يتمنّاه الإنسان ويريده. المحال: المستحيل.
(٤) نصب: النصب هو المثول. طارق: كلّ ما يأتي بالليل.

تميزت الشام – بشكل عام – ودمشق – بشكل خاص – بجمال الطبيعة الآسر، ووفـرة المياه والأنهار، وكثرة البساتين والرياض الخضراء، وبرغم ذلك فإنّ أبا تمام – فـي قـصيدته الآتية – يدعو لها بالسقيا ويطيل في الدعاء، وهو بذلك ينهج نهج شعراء الحنين فـي العـصر الجاهلي بأساليبهم ومعانيهم، ولكن إذا كان وطن الشاعر الجاهلي في شبه الجزيرة العربية يتسم بشح المياه والأمطار، مما يجعله يدعو لها بالسقيا، فلماذا إذن يطيل أبو تمام في الاستسقاء؟

ولعله أخفى خلف هذا الدعاء – بالإضافة إلى حبّ الوطن وأهله والحنـين إليهمـا – شعوراً آخر بخيبة الأمل، الذي كان يعقده على رحيله إلى مصر طلباً للرزق، إذ لم يـنجح فـي تحقيق طموحاته وآماله، فأحسّ بحنين طاغٍ إلى دمشق وأهلها، وراح يفـضّل الـديار الـشامية على ما سواها من الديار التي كان الأوائل يفضلونها وينزلون بها لطيب ترابها وهوائها، ممـا يعكس انتماءً صادقاً للوطن، قال(١):

سَـقَى الـرَّائحُ الغَـادِي المُهجِّـرُ بَلْـدةً　　سَـقتْنِيَ أَنفـاسَ الـصَّبابةِ والخَبْـلِ(٢)

سَـحَاباً إِذا أَلقَـتْ علـى خِلْفِـهِ الـصَّبا　　يَداً قالـتِ الـدُّنيا أَتَـى قاتِـلُ المَحْـلِ(٣)

فجَـادَ دِمَـشْقاً كلَّهـا جُـودَ أهْلِهـا　　بأنْفُـسِهِمْ عنـدَ الكَريهَـةِ والبَـذْلِ(٤)

فلـم يُبْـقِ مـن أرضِ البِقَـاعين بقعـةً　　وجَادَ قُرَى الجَـوْلانِ بالمُـسْبِلِ الوَبْـلِ(٥)

---

(١) أبو تمام، ديوانه بشرح الخطيب التبريزي، ٤/ ٥٢٠-٥٢٢.

(٢) الرائح: مطر يكون عشية. الغادي: مطر يكون صباحاً. المهجِّر: الجيد الجميل من كل شيء، وقيل الفـائق الفاضل على غيره. الصبابة: الشوق، وقيل رقته وحرارته. الخبل: الجنون.

(٣) خلفه: الخلف هو الضرع نفسه. الصَّبا: ريح معروفة تقابل الدَّبور. المحل: الجدب وانقطاع المطر ويـبس الأرض.

(٤) جاد: يقال جاد المطر أي وَبَلَ، ومطر جَوْد أي غزير. جود: كرم. الكريهة: النازلة والشدّة. البذل: العطاء.

(٥) البقاعين: بقاع لبنان وبقاع بَعْلبك. الجولان: قرية وقيل جبل من نواحي دمشق ثم من عمل حوران.

بنفسي أرضُ الشَّام لا أيمنُ الحِمَى ... ولا أَيْسَرُ الدَّهْنا ولا وَسَطُ الرَّمْلِ(١)

ولم أرَ مثلي مستهاماً بمثلكم ... لهُ مثلُ قلْبي فيهِ ما فيهِ لا يغلي

عَدَتْنيَ عنكُمْ مُكْرَهاً غُرْبَةُ النَّوَى ... لها طَرْبَةٌ في أَن تُمِرَّ ولا تُحْلي

تفصح المفاضلة التي عقدها الشاعر في الأبيات السابقة بين دياره (دمشق، البقاعين، الجولان، الشام) والديار الأخرى (الحمى، الدهناء، الرمل)، عن حبّه الصادق لها، كما تكشف عن ارتباطه بالمكان وتشبثه بالأرض التي نشأ فيها. وتأتي جملة (بنفسي أرض الشام) لتجسِّد الإحساس بالانتماء إلى الوطن والانجذاب إليه.

ويوحي استخدام الطباق (تمرَّ، تحلي) بالآمال التي عقدها الشاعر على الغربة، ولكن نتائجها جاءت سلبيةً على عكس ما توقّعها، مما يعكس إحساسه بالفشل. وقد حاول تسويغ الابتعاد عن الوطن والأهل بتوجيه اللوم إلى الغربة، التي أكرهته عليها ظروف الحياة؛ ليبعد اللوم عن نفسه، محاولاً من خلال ذلك أن يخفف من إحساسه بالذنب والندم.

وغالباً ما تتكرر المعاني عند شعراء الحنين، خاصّةً عندما يصوّرون الحالة التي تصيبهم، من انفعال وإحساس بالشوق والحنين، إذا ذكر الوطن أو الأهل على مسامعهم، كما أنّهم – كثيراً – ما يلجأون إلى توضيح موقفهم تجاه الوطن، وتسويغ رحيلهم عنه؛ بأنّهم غادروه مضطرين مكرهين، وكأنّهم رأوا فيمن يكره وطنه عيباً؛ فأرادوا دفع هذا العيب عن أنفسهم.

---

(١) الحمى: حمى ضرية وقد كان حمى كليب بن وائل وفيه قبره، وهو سهل الموطئ، كثير الخلة، وأرضه صلبة، ونباته مسمنة، وبه كانت ترعى إبل الملوك. الدهناء: سبعة أجبل من الرمل طولها من حزن ينسوعة إلى رمل يبرين، وهي من أكثر بلاد الله كلأ مع قلة أعذاء ومياه، وإذا أخصبت الدهناء ربعت العرب جمعاً لسعتها وكثرة شجرها، وهي نزهة من سكنها لا يعرف الحمى لطيب تربتها وهوائها. الرمل: موضع.

وهذا شاعر آخر من أبناء الشام، وهو ديك الجن الحمصي (ت٢٣٥هـ) حينما رحل إلى مصر، لم يجد من يسعفه على حنينه إلى الشام وشوقه إلى أهلها، فسلّم أمره لقضاء الله وقــدره، كي يهوّن على نفسه، ويخفف من هموم الغربة وآلامها، قال[(١)]:

أما لي علـــى الـــشَّوقِ اللجــوجِ مُعــينُ   إذا نزحـــــــتْ دارٌ وخـــــــفَّ قطـــــــينُ

إذا ذكـــــروا عهــــدَ الـــشآمِ اســـتعادنيُ   إلـــــى مـــــنْ بأكنــــافِ الـــشآمِ حنـــينُ

فـــوَالله مـــا فارقتهـــا عـــن قلـــىً لَهـــا   ولكـــنَّ مـــا يُقـــضى فـــسوفَ يكـــونُ

---

(١) ديك الجن، ديوان ديك الجن الحمصي، تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، د.ت، دار الثقافة، بيروت، ص١٩٢.

الحنين إلى المدينة المنوَّرة:

تقع المدينة في إقليم الحجاز، وتمتاز بجوها المعتدل الذي يزخر بظلال الأشجار، والمدينة بلدُ زروعٍ ونخيل، من هنا كان سكانها من أهل المدر لا من أهل الوبر، فهم لا يعتمدون في حياتهم مثل البدو على رعي الأغنام، وإنما يعتمدون على زرع الأرض، وهم لا يتخذون بيوتهم من الأصواف والأوبار، وإنما يتخذونها من الآطام والحصون.(١)

وقد ازدهرت الحياة في المدينة بمجيء الإسلام، واستمر هذا الازدهار حتى قدوم العصر العباسي، ولكن برغم الاستقرار والحضارة التي كان يحياها مجتمع المدينة، فإنّ ذلك لم يمنع بعض أبنائها من الرحيل عنها إلى غيرها من المدن والحواضر – طلباً للرزق– وخاصةً بغداد حاضرة الخلافة آنذاك. فقد رحل ابن المولى (ت١٧٠ﻫ) في بعض سنيه إلى العراق، فأخفق، وطال مقامه، فحنّ إلى المدينة وإلى أهل الحجاز، قال(٢):

ذَهَبَ الرِّجَالُ فَلا أُحِسُّ رِجَالاً	وَأَرَى الإِقَامَةَ بِالعِراقِ ضَلالا
وَأَرَى المُرَجِّي للعِرَاقِ وَأَهْلِهِ	ظَمْآنَ هَاجِرَةٍ يُؤمِّلُ آلا(٣)
وَطَرِبْتُ أَنْ ذَكَرَ المَدِيْنَةَ ذَاكِرٌ	يَوْمَ الخَمِيْسِ فَهَاجَ لِي بَلْبَالا(٤)
وَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي السَّمَاءِ كَأَنَّني	أَبْغِي بِنَاحِيَةِ السَّمَاءِ هِلالا
طَرَبَاً إِلَى أَهْلِ الحِجَازِ وَتَارَةً	أَبْكِي بِدَمْعٍ مُسْبَلٍ إِسْبَالا

(١) انظر: شوقي ضيف، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، ط٥، د.ت، دار المعرف، القاهرة، ص٩، ١٠.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ١٨٩/٣. وانظر: ابن منقذ، المنازل والديار، ص٢٤٤، ٢٤٥.

(٣) هاجرة: نصف النهار عندما يشتد الحرّ. آل: الآل هو السراب.

(٤) بلبال: شدّة الهمّ والوساوس في الصدر.

فَيُقَـــالُ قَـــدْ أَضْـــحَى يُحَـــدِّثُ نَفْـــسَهُ | وَالعَيْنُ تَـــذْرِفُ فِـــي الـــرِّدَاءِ سِـــجَالا(١)

إِنَّ الغَرِيْـــــبَ إِذَا تَـــــذَكَّرَ أَوْشَـــــكَتْ | مِنْـــــهُ المَـــدَامِعُ أَنْ تَفِـــيْضَ عِـــلالا(٢)

ولَقَـــــدْ أَقُـــــولُ لِـــــصَاحِبِي وكَأَنَّـــــهُ | مِمَّـــــا يُعَـــــالِجُ ضُـــــمِّنَ الأَغْـــــلالا(٣)

خَفِّـــضْ عَلَيْـــكَ فَمَـــا يُـــرَدْ بِـــكَ تَلْقَـــهُ | لا تُكْثِـــــرَنَّ وَإِنْ جَزَعْـــــتَ مَقَـــــالا

قَـــدْ كُنْـــتَ إِذْ تَـــدَعُ المَدِيْنَـــةَ كَالَّـــذِي | تَـــــرَكَ البِحَـــــارَ وَيَمَّـــــمَ الأَوْشَـــــالا(٤)

فَأَجَـــابَنِي خَـــاطِرْ بِنَفْـــسِكَ لا تَكُـــنْ | أَبَـــــداً تُعَـــــدَّ مَـــــعَ العِيَـــــالِ عِيَـــــالا

تكشف الأبيات السابقة عن مدى الضيق الذي أحسّ به الشاعر في أرض الغربة في العراق، حين أصبح العيش فيها وبين أهلها أمراً مستحيلاً، مما جعله يشعر بخيبة الأمل، وهذا ما عبّر عنه من خلال التشبيه التمثيلي في البيت الثاني، إذ صوّر حالته حين عقد آماله في الحصول على الرزق على العراق وأهله، بالإنسان الظمآن الذي يأمل أن يروي عطشه من السراب الكاذب، وقد رمز بـ(السّراب) إلى خيبة الأمل وضياع الحلم. وتعكس هذه الصورة موقف الشاعر الرافض للعراق ونقمه على رجاله من ناحية، وإحساسه بالفشل من ناحية أخرى.

وقد أثار ذكر المدينة وساوس الشاعر وهمومه، وهيج أشواقه إلى المدينة وأهلها، فدفعه ذلك إلى النظر في السماء تارةً، وإلى البكاء تارةً أخرى؛ ولعله وجد في هاتين الوسيلتين تنفيساً لكربته وضيقه، وإشباعاً لحبّ الوطن والحنين إليه، فالبكاء صفة ملازمة لمعظم الغرباء.

---

(١) سجال: جمع سجل، وهي الدّلو العظيمة.

(٢) علال: مرّة بعد مرّة.

(٣) ضمّن الأغلال: قُيّد بها.

(٤) الأوشال: جمع وشل، وهو الماء القليل.

ويوحي حوار الشاعر مع صاحبه (ولقد أقول لصاحبي... خفض عليك...) بمحاولة يائسة للتخفيف عن نفسه من نتيجة الغربة التي باءت بالفشل، ومحولة لاسترداد عزيمته وبأسه. وتأتي الصورة الرمزية (... ترك البحار ويمّم الأوشال) لتوحي بإحساسه بالنّدم والحسرة، فرمز بـ(البحار) إلى المدينة وأهلها، ورمز بـ(الأوشال) إلى العراق وأهله. ويأتي روي الأبيات (لا) صرخة رفضٍ واستنكار لفراق الوطن والغربة، مما يسهم في تعميق المعنى.

ولعلّ أبرز معالم المدينة التي تميزت بها، الحرّتان وجبل أُحُد، فكان شعراؤها إذا حنّوا إليها ذكروا هذه المعالم وغيرها وتشوقوا إليها. فهذا محمد بن عبد الملك الفقعسي (ت٢١٠هـ) حين ورد بغداد، عبثت مشاعر الغربة بقلبه، فحنّ إلى وطنه المدينة، وذكر أُحُداً وغيره من نواحيها، وهو يكثّف من استدعاء الوسائل الفنية كالدّموع والبكاء والبروق والرياح، وهو بذلك ينهج نهج سابقيه من شعراء الحنين، قال(١):

نَفَى النَّومَ عنِّي فالفُؤَادُ كئيبُ ... نوائِبُ هَمٍّ ما تزال تَنُوبُ(٢)

وأَحْراضُ أَمْراضٍ بِبَغْدادَ جُمِّعتْ ... علَيَّ وأَنْهارٌ لَهُنَّ قَسِيبُ(٣)

وظَلَّتْ دُمُوعُ العَينِ تَمْرِي غُروبَها ... مِنَ الْماءِ دَارَاتٌ لَهُنَّ شَعُوبُ(٤)

وما جَزَعٌ مِنْ خَشْيَةِ الْمَوتِ أَخْضَلَتْ ... دُمُوعِي ولكنَّ الغَرِيبَ غَرِيبُ(٥)

أَلاَ لَيْتَ شِعْرِي هَلْ أَبِيتَنَّ لَيْلَةً ... بِسَلْعٍ ولَمْ تُغْلَقْ عَلَيَّ دُرُوبُ(٦)

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ١/١٣٥، ١٣٦.

(٢) كئيب: منكسر وسيء الحال من الحزن. نوائب: مصائب. تنوب: تنزل وتحلّ.

(٣) أحراض: أسقام. قسيب: صوت الماء.

(٤) تمري: تستخرج وتستدر. غروبها: دموعها. دارات: مفردها دارة، وهي الأرض الواسعة بين جبال. شعوب: ما عظم من سواقي الأودية.

(٥) أخضلت: بللت.

(٦) سلَع: جبل بسوق المدينة.

وَهَـــلْ أُحُـــدٌ بـــادٍ لَنَـــا وكأَنَّـــهُ حِــصَانٌ أَمَــامَ المُقَرَّبَــاتِ جَنِيــبُ(١)
يَخُبُّ الــسَّرابُ الــضَّحْلُ بينــي وبينَــهُ فَيَبْـــدُو لِعَيْنِـــي تـــارَةً ويَغِيـــبُ(٢)
فَـــإِنَّ شِـــفائِي نَظْـــرَةٌ إِنْ نَظَرْتُهـــا إِلـــى أُحُـــدٍ والْحَرَّتـــانِ قَرِيـــبُ(٣)
وَإِنِّـــي لأَرْعَـــى الـــنَّجْمَ حتَّـــى كَـــأَنَّنِي عَلَـــى كُـــلِّ نَجْـــمٍ فـــي الـــسَّماءِ رَقِيـــبُ
وَأَشْـــتاقُ لِلْبَـــرْقِ الْيَمـــانِيِّ إِنْ بَـــدا وَأَزْدادُ شَـــوْقاً أَنْ تَهُـــبَّ جَنَـــوبُ

تكشف الأبيات السابقة عن مدى تأزم حالة الشاعر النفسية، فالمصائب والهموم التـي لا تزال تحلّ به، والأسقام التي تجمعت عليه، في بغداد؛ جعلته قلقاً كئيباً لا يتمكن من النـوم. ثـمّ يستدعي الدموع، ويصفها بالغزيرة، ويصورها بالسواقي بين الدارات؛ ليعمق الإحساس بالحزن والضيق. وحين أطال في وصف مشهد البكاء، إنما أراد بذلك أن يؤكد حالة الغريب الذي يلجـأ إلى البكاء لينفس عن كربته، فهو لا يشعر بالخوف من الموت، ولكن الغربة هي الغربة، لابدّ أن يتجرع كلّ غريب مرارتها، ويخفف من آلامها بالبكاء، وكلّما كانت الدموع غزيرة ازداد الشعور بالراحة.

وقد عبر الشاعر عن لهفته في العودة إلى الوطن، من خلال أسـلوب التمنـي (ليـت شعري)، والاستفهام (هل أبيتنّ ليلة بسلع؟ هل أحد بادٍ لنا؟)، فأقصى ما يتمنى أن يبيت ليلةً فيها، مما يعد علامة وفاء للوطن، ويدل على عاطفة صادقة تجاهه. ويأتي تكـرار أسـماء الأمـاكن (سلع، وأحد – مرتين، الحرتان) ليعكس الارتباط الوثيق بينه وبين المكان الذي ينتمي إليه.

---

(١) أُحُد: جبل معروف في شمالي المدينة. المقربات: الخيل التي ضُمِّرت للركوب. جنيب: قريب.
(٢) يخبّ: يخدع. الضحل: القليل.
(٣) الحرتان: هما حَرّتا واقِم والوَبْرة.

وتوحي مراقبه الشاعر للنجوم بالقلق النفسي، والشعور بسطوة الزمن، فاللجوء إلى ذلك يدل على محاولة يائسة في إنفاذ الزمن، ومحاولة لملء الفراغ العاطفي الذي تركه فراق الوطن والأهل. ويستدعي الشاعر البرق والرياح وسائل فنيةً، فيوظف البرق اليماني رمـزاً للـوطن، ومثيراً لمشاعر الشوق والحنين، كما يوظف ريح الجنوب التي تأتي من نحو المدينة في تـأجيج هذه المشاعر وازديادها.

الحنين إلى اليمامة:

حظيت حاضرة اليمامة بمكانة متميزة في شبه الجزيـــرة العربيـــة، وتمتعـــت بمركـــز حضاري مهمّ، وثقل اقتصادي كبير؛ نظراً لموقعها المتوسط من شـــبه الجزيـــرة، وخـــصوبة أراضيها، ووفرة ثرواتها الطبيعية. وهي في طابع حياتها حضرية مـــستقرة؛ لـــوفرة المـــوارد الاقتصادية والزراعية التي تضمن لساكنيها البقاء والاستقرار، فلا ينزعون إلى التنقل والترحال وارتياد مساقط الغيث.(١)

وتذكر المصادر(٢) قصة شاعر من أبنائها، وهو يحيى بن طالب الحنفي (ت١٨٠هـ) الذي كان شيخاً ديناً، يقرئ أهل اليمامة، وكانت له ضيعة يقال لها: البرة العليـــا(٣)، وكـــان يـــشتري غلات السلطان بقرقرى(٤)، ويتاجر فيها، وكان مع ثرائه سخياً جواداً، فأصاب النـــاس جـــدب، فجلا أهل البادية، فنزلوا قرقرى، ففرق يحيى بن طالب الحنفي فيهم الغلات، فباع عامل السلطان أملاكه، وعزه الدَّين، فهرب إلى العراق، وقد كان كتب ضيعةً من ضياعه لقوم إقراراً لهم بهـــا لئلا يبيعها السلطان فيما يبيع، فكابره القوم، فخرج من اليمامة هارباً من الدَّين يريد خراســـان، فلما وصل بغداد بعث رسولاً إلى اليمامة، فلما رآه في الزورق اغرورقت عيناه بالدموع، وحنّ إلى اليمامة، فقال(٥):

---

(١) انظر: الدباسي، الشعر في حاضرة اليمامة حتى نهاية العصر الأموي، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ص ١٧، ١٨.

(٢) انظر: الحموي، معجم البلدان، ٣٧١/٤، ٣٧٢. وانظر: التنوخي، الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الـــشالجي، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، دار صادر، بيروت، ٢٦٨/٤، ٢٦٩.

(٣) البرة: البرة العليا والبرة السفلى ويقال لهما البرتان وهما قريتان باليمامة.

(٤) قرقرى: أرض باليمامة فيها قرى وزروع ونخيل كثيرة.

(٥) يحيى بن طالب الحنفي، حياته وشعره، تأليف حمد ناصر الدخيل، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، جامعة الإمام محمـــد بن سعود الإسلامية، الرياض، ص١١٩، ١٢٠.

أحقّاً عِبادَ الله أنْ لَسْتُ ناظِراً ... إلى قَرْقَرَى يوماً وأَعْلامِها الغُبْرِ(١)
كأَنَّ فُؤادِي كلَّما مَرَّ راكِبٌ ... جَناحُ غُرابٍ رامَ نَهْضاً إلى وَكْرِ(٢)
أَقولُ لموسى والدموعُ كأَنَّها ... جداولُ فاضَتْ من جوانبها تجري
أَلا هَلْ لشيخٍ وابنِ ستين حِجَّةً ... بكى طرَباً نحو اليمامةِ مِنْ عُذْرِ(٣)

يوحي الاستفهام (أحقّاً عباد الله ...) بما يدور في نفسية الشاعر من صراع، فقد ابتعد عن وطنه، وأحس بعجزه عن الرجوع إليه والنظر إلى جباله. ووظف تشبيه القلب بجناح الغراب للتعبير عن حالة التوتر والانفعال التي تصيبه عندما يتذكر الوطن.

ويفصح توجيه الخطاب إلى عباد الله أولاً، وإلى صاحبه موسى ثانياً، عن حاجة الشاعر إلى من يشكو إليه؛ لتخفيف مشاعر الضيق والانكسار التي أصابته حين ابتعد عن أرضه. كما يعكس لهفته في الرجوع إليها.

ويستدعي الدّموع والبكاء وسيلةً فنيةً؛ ليعبر من خلالها عن إحساسه بالحزن والحنين، ويشبه الدموع بالجداول الفائضة ليعمق الإحساس بالفاجعة والفقد. ويأتي عامل الزمن (شيخ وابن ستين حجة) ليزيد من الإحساس بالفقد، فقد الوطن والحياة، وليفصح كذلك عن رغبة بالموت على أرض الوطن، فالشيخوخة التي تبدّل أحوال الإنسان تهدده بالفناء المحتوم بعيداً عنها، مما يعكس شعوراً بالضعف والعجز أمام سطوة الزمن. ويأتي الاستفهام الاستنكاري مقروناً بالاستفتاح (ألا هل لشيخ ... من عذر؟) بمنزلة تعظيم لهذه للفاجعة، وتعبيراً عن رغبة في إظهار مزيد من الضعف.

---

(١) أعلامها: جبالها. الغبر: التي يعلوها الغبار والتراب.
(٢) رام: تحرك. وكر: الوكر عشّ الطائر.
(٣) طرباً: شوقاً.

ويستمرّ يحيى بن طالب في بثّ حنينه إلى اليمامة، وحزنه لفراقها، ويأتي على ذكر الدواعي التي أجبرته على الخروج منها، قال(١):

وزهَّدَني في كلِّ خيرٍ صَنَعْتُهُ ... إلى النَّاسِ ما جَرَّبْتُ من قلَّةِ الشُّكْرِ
إذا ارْتَحَلَتْ نَحْوَ اليَمامَةِ رُفْقَةٌ ... دَعاكَ الْهَوَى واهْتاجَ قَلْبُكَ للذِكْرِ
فَوَا حَزَنِي مما أُجِنُّ من الأَسَى ... ومن مُضْمَرِ الشَّوقِ الدَّخِيلِ إلى حَجْرِ(٢)
تَغَرَّبْتُ عنها كارهاً وهجرْتُها ... وكان فراقِيها أَمرَّ من الصَّبْرِ(٣)
يقولون: إنَّ الهجرَ يَشْفِي من الجَوى ... وما ازددتُ إلاّ ضَعْفَ قَلْبٍ على الهَجْرِ
فيا راكِبَ الوَجْناءِ أُبْتَ مُسلَّماً ... ولا زِلْتَ مِن رَيْبِ الحَوادِثِ في سِتْرِ(٤)
إذا ما أَتَيْتَ العِرْضَ فاهْتِفْ بِجَوِّهِ ... سُقِيتَ على شَحْطِ النَّوَى سَبَلَ القَطْرِ(٥)
فإنَّكَ مِن وادٍ إليّ مُرَجَّبٌ ... وإنْ كُنْتَ لا تُزْدارُ إلا على عُفْرِ(٦)

أفصح الشاعر في الأبيات السابقة عن موقفه تجاه الناس والوطن، فالحديث عن الزهد وقلة الشكر يوحي بموقفه الرافض للناس والمجتمع الذي كان يعيش فيه، وقد جاءت نتيجة تجاربه لهم سلبيةً؛ مما أثّر على أفعاله، فزهد في صنع الخير نتيجةً لقلّة شكرهم له، واتخذ موقفاً رافضاً للوطن عندما غادره كارهاً هاجراً، ظناً منه بأن رحيله سيخفف من ضيقه وألمه، ولكن لم يزده ذلك إلاّ ضعفاً وحزناً، فسيطرت عليه مشاعر الحنين، ولم يملك حينها إلاّ الدعاء له بالسقيا.

---

(١) يحيى بن طالب الحنفي، حياته وشعره، ص ١٢٠، ١٢١.
(٢) حجر: قصبة اليمامة وأم قراها، وبها ينزل والي اليمامة.
(٣) الصبر: عصارة شديدة المرارة تستخدم دواءً وتستخرج من شجر ينبت في الهند.
(٤) الوجناء: الناقة القوية الشديدة. أُبت: عدت.
(٥) العرض: واد باليمامة. شحط: بُعد. النوى: الدار. سبل: مطر جود هاطل.
(٦) مرجّب: معظّم. تزدار: تزار. عفر: بعد وقلّة زيارة.

كما أنّ إسناد الفعل (يقولون) إلى واو الجماعة الغائبين، ونسبة القول إليهم، يوحي بمحاولة الشاعر إبعاد اللوم عن نفسه وإلقائه على غيره، ويعكس ذلك شعوراً خفياً بالندم لهجر الديار ومغادرتها.

لقد أحس يحيى بن طالب بالضيق، بسبب ما لقيه من أذى من الناس برغم حسن صنيعه معهم، وقد تفاقم هذا الضيق بمداينته من السلطان الذي باع أملاكه، فكان مدعاة للخروج من اليمامة، قال[١]:

لَشُرْبُكَ بالأَنْقَاءِ رَنْقاً وصافياً　　أعفُّ وأَعفَى من ركوبِكَ في البَحْرِ[٢]
مداينةُ السلْطانِ بابُ مذلّةٍ　　وأَشبهُ شيءٍ بالقناعَةِ والفَقْرِ
إِذا أَنتَ لم تنظُرْ لنفسِكَ خالياً　　أَحاطتْ بك الأَحْزانُ مِنْ حيثُ لا تدرِي
لَعَلَّ الذي يَقْضِي الأمورَ بعلمِهِ　　سيصرفُنِي يوماً إِليها على قَدْرِ
فَتَفْتُرَ عَيْنٌ ما تَمَلُّ من البُكَا　　ويَصْحُوَ قَلْبٌ ما يُنَهْنَهُ بالزَّجْرِ

انتقل الشاعر من الحديث عن الزهد إلى القناعة والفقر، ومن الحديث عن الناس إلى السلطان، ولعله بذلك عبّر عن شعوره بالذلّ والغربة النفسية بسبب المجتمع (الناس) والسياسة (السلطان)؛ مما يعزز موقفه تجاه الوطن، ويسوغ خروجه منه. وبرغم ذلك فإنّه لا يزال يحبّه ويأمل في العودة إليه، فيسلّم لقضاء الله وقدره.

---

(١) يحيى بن طالب الحنفي، حياته وشعره، ص ١٢١.

(٢) الأنقاء: مفردها نقا وهو القطعة من الرمل تنقاد محدوبة. رنقاً: كدراً. أعفى: أسلم. ينهنه: يكفّ.

وواصل يحيى بن طالب رحلته من بغداد إلى خراسان، والحزن يملأ قلبه؛ ففي كلّ يوم يزداد بعداً عن وطنه، ويزداد شوقاً وحنيناً إليه، فلمّا وصل قومس[١] سأل عنها، فبكى وحنّ إلى اليمامة وإلى أهلها، وقال[٢]:

أقــولُ لأصــحابي ونحــنُ بقــومِسٍ نــراوحُ أكتــافَ المُحَذَّفَــةِ الجُــرْدِ[٣]

بَعُــدْنا وعهــدِ اللهِ عــن أهــلِ قَرْقَــرى وفيها الأُلَى نَهْوَى وزدنــا علــى البعــدِ

وعندما بلغ خراسان، شعر بالمسافة الشاسعة التي تفصله عن دياره، وأحسّ بدنو الأجل، فسيطرت عليه مشاعر الخوف من الموت بعيداً عن أرضه، وأراد الرجوع ولكن أنّى يكون لــه ذلك وقد خلّف وراءه ديناً ثقيلاً يصدّه عن الرجوع، قال[٤]:

أيا أثَــلاتِ القــاعِ مــن بَطْــنِ تُوضَــحٍ حَنينــي إلــى أطلالكُــنَّ طَويــلُ[٥]

ويــا أثَــلاتِ القــاعِ قلبــي مُوكَّــلٌ بكــنَّ وَجــدْوَى خيــرِكُنَّ قَليــلُ

ويا أثــلاتِ القــاعِ قــد مَــلَّ صُــحْبَتي مَــسيري فهــلْ فــي ظِلِّكُــنَّ مَقيــلُ[٦]

ويــا أثــلاتِ القــاعِ ظــاهِرُ مــا بَــدا بِجِسْمِي علــى مــا فــي الفــؤادِ دليــلُ

ألاَ هَــلْ إلــى شَــمِّ الخُزَامَــى ونَظْــرَةٍ إلــى قَرْقَــرَى قبــلَ الممــاتِ ســبيلُ[٧]

---

(١) قومس: كورة كبيرة تشتمل على مدن وقرى ومزارع، وهي في ذيل جبال طبرستان، وقصبتها المشهورة دامغان، تقع بين الريّ ونيسابور.

(٢) يحيى بن طالب، حياته وشعره، ص١١٥.

(٣) نراوح: نركب هذه الفرس مرة ونركب غيرها مرة أخرى. المحذفة: من التحذيف وهو تسوية الشعر وتطريره. الجرد: القصيرة الشعر.

(٤) يحيى بن طالب الحنفي، حياته وشعره، ص١٣١، ١٣٢.

(٥) أثلات: مفردها أثلة، وهي شجرة طويلة معمّرة تقاوم التصحّر والجفاف. القاع: قاع موحوش وهو موضع باليمامة. توضح: من قرى قرقرى.

(٦) مقيل: الاستراحة نصف النهار إذا اشتدّ الحرّ.

(٧) الخزامى: مفردها خزاماة، وهي نبات ربيعي ذو رائحة طيبة.

فأَشْربَ من ماءِ الحُجَيْلاءِ شَرْبَةً ... يُداوَى بِها قبلَ المماتِ عَلِيلُ[(١)]

أُحدِّثُ عنكِ النفسَ أنْ لَستُ راجعاً ... إليكِ فحزني في الفؤادِ دَخيلُ

أُريدُ انحداراً نحوها فيَصُدُّني ... إذا رُمْتُهُ دَيْنٌ عليَّ ثَقِيلُ

يوحي تكرار حرف النداء في الأبيات السابقة بلهفة الشاعر الحزينة في الرجوع إلى وطنه. كما يدلّ تكرار اسم النبات المرتبط بالمكان (أثلات القاع) على تشبثه القوي بالأرض من ناحية، وبطبيعتها من ناحية أخرى، فذكر شجر الأثل أربع مرات في الأبيات الأربعة الأولى مقروناً بأحاسيس وأمنيات متنوعة كالشعور بالحنين إليها، والألم والحزن على فراقها، يؤكّد تعلقه الشديد بها. ولعلّه وجد في استحضار عناصر الطبيعة (الأثلات، والخزامى، وماء الحجيلاء)، وعناصر المكان (القاع، توضح، قرقرى، الحجيلاء)، ما يشبع حنينه إلى الوطن، ويرضي شغفه به.

وقد وظف الشاعر أسلوب الاستفهام مرتين (فهل في ظلّكن مقيل؟ هل إلى شمّ الخزامى ونظرة ... سبيل؟) في الإفصاح عن أمنيته في الرجوع إلى الوطن، والتعبير عن مشاعر الشوق والحنين إليه. ويأتي تكرار عامل الزمن (قبل الممات) مرتين؛ لينذره باقتراب أجله، وليعمل على تأزيم معاناته. ثمّ يصعّد إحساسه بالمعاناة من خلال حديث النفس (أحدّث عنكِ النفس ...)، مما يكشف حواراً داخلياً كان يدور في نفسه حول إمكانية رجوعه إلى دياره، ويتحول هذا الحوار إلى صراع نفسي حينما تصطدم أمنياته وأحلامه بالواقع المادي من حوله (فيصدّني دين)، فيشعر بالضعف واليأس.

(١) الحجيلاء: بئر باليمامة.

وفي قصيدة أخرى ليحيى بن طالب يستوقف فيها صاحبيه على الديار، للنظر إلى الظعائن، ويستذكر فيها أيامه الفائتة، ويتمنّى العودة إلى الوطن، وهو فيها ينهج نهج الشاعر الجاهلي في أسلوبه ومعانيه، قال يحن إلى اليمامة(١):

يا صَاحِبَيَّ فَدَتْ نَفْسِي نُفُوسَكُما عُوجَا عليَّ صُدُورَ الأَبْغُلِ السُّنُنِ(٢)

ثم ارْفَعا الطَّرْفَ نَنْظُرْ هل نَرَى ظُعُناً بحائلٍ؟ يا عَنَاءَ النَّفْسِ من ظُعُنِ(٣)

أَحْبِبْ بِهِنَّ لَوَ انَّ الدَّارَ جامعةٌ وبالبلادِ الَّتي يَسْكُنَّ من وَطَنِ

طوالعُ الخيلِ من تِبْراكَ مُصْعِدَةٌ كما تتابَعَ قَيْدامٌ من السُّفُنِ(٤)

يا ليت شعريَ والإنسانُ ذو أَمَلٍ والعَيْنُ تَذْرِفُ أحياناً من الحَزَنِ

هل أجْعَلَنَّ يَدِي للخَدِّ مِرْفَقَةً على شَعَبْعَبَ بينَ الحَوْضِ والعَطَنِ؟(٥)

أَمْ هَلْ أَقولَنْ لِفتيانٍ على قُلُصٍ وهم بِتِبْرَاكَ: قَضُّوا نَوْمَةَ الوَسَنِ(٦)

يوحي أسلوب التمنّي (يا ليت شعري والإنسان ذو أمل) بمحاولة الشاعر اليائسة بالتجلّد أمام فراق الوطن وعدم المقدرة على الرجوع إليه. ويأتي استحضار الدموع ليكشف عن إحساسه بالحسرة والألم على الماضي واستحالة استرجاعه واسترجاع الذكريات. وقد وظف الشاعر أسلوب الاستفهام (هل أجعلنّ يدي ...؟ و هل أقولنّ لفتيان ...؟) في تعميق الإحساس بالحسرة على فراق الوطن، وتمني الرجوع إليه.

---

(١) يحيى بن طالب الحنفي، حياته وشعره، ص١٣٩.

(٢) عوجا: اعطفا. الأبغل: البغال. السنن: السريعة.

(٣) الطرف: العين. ظعناً: الظعن مفردها الظعينة، وهي المرأة في الهودج. حائل: موضع باليمامة لبني قشير.

(٤) تبراك: ماء لبني نمير في أدنى المروت لاصق بالوركة. قيدام: مقدم الشيء وصدره.

(٥) شعبب: ماء لبني قشير باليمامة. الحوض: مجتمع الماء. العطن: مبرك الإبل.

(٦) قلص: مفردها قلوص، وهي الفَتِيَّة من الإبل. الوسن: شدة النوم، أو أوله.

لقد أحسّ يحيى بن طالب بأهمية الوطن، لحظة خرج منه هارباً من الدَّين الذي أثقل كاهله، ويُعَدُّ خروجه منه مجبراً، عاملاً أساسياً في تعميق الإحساس بالغربة، ودافعاً قوياً لمشاعر الشوق والحنين، يضاف إلى ذلك تقدُّمه في السنّ. ولعلّ تديّنه كان ظاهراً في قصائده إذ إنه دائم الاستسلام لقضاء الله وقدره، واللجوء إليه ليخفف عنه أحزانه وهمومه، وهو – في القصيدة الآتية– يهيج عواطفه أن يرى شخصاً يرحل إلى دياره، ويستدعي رياح الجنوب مثيراً لعواطفه، ومفزعاً لقلبه، ولا يلذّ له العيش إلا في وطنه اليمامة، قال يشكو حنينه(١):

يَهِيجُ عليَّ الشَّوْقَ مَنْ كانَ مُصْعِداً ويرتاعُ قَلْبِي أنْ تَهُبَّ جَنُوبُ(٢)

فيا رَبِّ سَلِّ الْهَمَّ عَنِّي فإنَّنِي مع الْهَمِّ محزونُ الفؤادِ غَرِيبُ(٣)

ولسْتُ أرى عَيْشاً يَطيبُ مع النَّوى ولكنه بالعِرْضِ كانَ يطيبُ(٤)

وقد ذكر الحموي في معجم البلدان، أنّ الخليفة هارون الرشيد غُنِّيَ ببعض أبيات يحيى ابن طالب، فسأل عن قائلها، فأُخْبِر، فأمر بردِّه وقضاء دينه، فسُئِل عنه، فقيل إنّه مات قبل ذلك بشهر، وقد قال قبل موته(٥):

خَلِيلَيَّ عُوْجا بارَكَ اللهُ فِيكُما على الْبَرَّةِ العُليا صُدُوْرَ الرَّكائِبِ

وَقُولا إذا ما نَوَّه القَّوْمُ للقِرَى ألا في سَبِيلِ اللهِ يحيى بنُ طالبِ

وهكذا انتهت رحلة الشاعر الأبدية، غريباً بعيداً عن وطنه وأهله، ولم يحظ بما تمناه من الرجوع إلى الأهل والوطن.

---

(١) يحيى بن طالب الحنفي، حياته وشعره، ص١١٣.

(٢) يرتاع: يفزع.

(٣) سلِّ: اكشف. عزيب: بعيد عن وطنه مغترب عنه.

(٤) العرض: واد باليمامة.

(٥) انظر الخبر والأبيات: الحموي، معجم البلدان، ٣٢٧/٤.

الحنين إلى غَزَّة:

تقع مدينة غَزَّة في أقصى الشام من ناحية مصر، وهي من نـواحي فلـسطين غربـيّ عسقلان. وبها ولد الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت٢٠٤هـ) – رضي الله عنه– وانتقل منهـا إلى الحجاز فأقام وتعلم العلم هناك، ثمّ انتقل إلى العراق.(١)

لقد كان طلب العلم دافعاً نزح بالشافعي عن وطنه، إلاَّ أنّ حاله حال الشعراء الأوفيـاء لأوطانهم، حين سيطرت عليه مشاعر الحنين إلى مدينته غزة، فلم يستطع أن يخفي أشواقه إليها وإلى أهلها، وهو يدعو لها بالسقيا، ويتمنى الرجوع إليها، وانظر إليه كيف صوّر ترابها بالكحل، مما يدلّ على شدة تعلّقه بها، قال(٢):

وإنِّـي لَمـشتاقٌ إلـى أرض غـزة ... وإنْ خـانني بعـد التفـرُّق كتمـاني

سـقى الله أرضـاً لـو ظفـرتُ بترْبِهـا ... كَحَلْتُ بـه مـن شـدةِ الـشَّوقِ أجفـاني

ولعلَّ لشخصية الشافعي المتدينة أثراً واضحاً في حنينه إلى وطنه؛ فهو دائم الدّعاء لـه بالسقيا، شأنه في ذلك شأن شعراء الحنين الأوائل، وهو يعبّر عن حنينه إلى مدينته وأهلـه مـن خلال الدّعاء للغرباء بالرجوع إلى أوطانهم، ونوال أصحاب الحاجات أمنياتهم، واقتراب الأحبّة من بعضهم بعضاً؛ ويكشف ذلك عمّا يعانيه الشافعي من ضيق وحزن في ديار الغربة، قال(٣):

سـقى الله أرضَ العـامريِّ غمامـةً ... وردَّ إلـى الأوطـان كـلَّ غريـبِ

وأعطـى ذوي الحاجـاتِ فـوقَ مُنـاهُمُ ... وأمتـعَ محبوبـاً بقـربِ حبيـبِ

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ٢٠٢/٤-٢٠٣.

(٢) الشافعي، ديوان الشافعي، جمع وتحقيق ودراسة مجاهد مصطفى بهجت، ط٢، ٢٠٠٣م، ١٤٢٤هـ، دار القلم، دمشق، ص١١٤

(٣) المصدر السابق، ص٥٦.

والشافعي في أبيات أخرى، لا يمنعه الخوف من الموت في الفيافي والقفار الشاسعة التي تفصله عن وطنه، من الرجوع إليه، قال[١]:

إِنِّـــي أرى نفـــسي تتـــوق إلـــى مـــصر   ومن دُوْنِهـــا خَـــوض المهامـــهِ والقفـــرِ

فـــوَالله مـــا أدري أللخفـــضِ والغنـــى   أُقـــادُ إليهـــا أمْ أُقـــادُ إلـــى قبـــري؟

---

(١) الشافعي، ديوانه، ص٧٤، ٧٥.

المبحث الثالث:

الحنين في شعر الفاتحين الجدد

حفل الشعر العربي القديم – منذ ظهور الإسلام، وانطلاق الفتوحات الإسلامية – بشعر الجند الفاتحين، خاصةً ذلك الشعر الذي عبّروا به عن إحساسهم بالغربة في الأمصار المفتوحة، وشعورهم بالحنين إلى أهلهم وأوطانهم. وقد استمرّ حنين هؤلاء الفاتحين باستمرار الفتوحات الإسلامية، ومرابطة الجند في الثغور، وصولاً إلى العصر العباسي، فهذا العباس بن الأحنف (ت١٩٢هـ)، كان في جند الخليفة هارون الرشيد (ت١٩٣هـ) في خراسان، طال مقامه فيها، وضاقت نفسه ببلاد الغربة بصيفها وجوها، فأحسّ بالحنين إلى أهله ومدينته بغداد، فقال(١):

ليتَ شِعرِي متى نَؤُوبُ إلى بغـ ... ـدادَ إنَّا مُستبطئونَ الإيابا

مَنْ يكن صائِفاً بنهر أَبي الجُنْـ ... ـد يكنْ صيفُهُ أذىً وعَذابا

ما تَعَرَّفتُ للهواجرِ مَسَّاً ... ما بِقلبي أَشدُّ مِنها التهابا(٢)

فأَراني إِذا تذكَّرتُ مَنْ خَلْـ ... ـلَفتُ خَلْفِي لم أَملِك الإنتحابا

يكشف أسلوب التمني (ليت شعري) في الأبيات السابقة عن أمنية استولت على ذهن الشاعر وهي الرجوع إلى الوطن، ويوحي أسلوب الاستفهام (متى نؤوب بغداد؟) بنفاد صبره، وشعوره بالملل والضجر لطول المقام في ديار الغربة. وتسهم صورة القلب الملتهب في إظهار لوعته لفراق أهله، وقد استدعى الشاعر الدّموع وسيلة للتعبير عن حنينه إليهم، ولإظهار مزيد من الحزن والتفجع.

---

(١) العباس بن الأحنف، ديوان العباس بن الأحنف، شرح تحقيق عاتكة الخزرجي، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص٣٤.

(٢) الهواجر: جمع هاجرة، وهي الظهيرة ونصف النهار بالقيظ.

ولعلّ ما يشغل فكر الفاتحين – على الدوام– هو الشعور بطول مدّة المرابطة في الثغور، والأمل بالرجوع السريع إلى الوطن، ولقاء الأهل والأحبة، فالعباس بن الأحنف يبدي تخوفه من أن تطول مدّة المرابطة في خُرَاسان، وهو يسقط سخطه وغضبه على الزمان من خلال تصويره بالحاسد الذي حسده على نعمة وصال الأهل والأحبة، ويحنّ إلى أهله ومدينته بغداد ويذكر نهرها دجلة، قال[١]:

قالوا خُراسانُ أَقصَى ما يُرادُ بنا ... ثم القُفُولُ فقد جِئْنَا خُراسانا[٢]

متى يكون الذي أَرجو وآمُلُهُ ... أَمَّا الذي كنتُ أَخشاهُ فقد كانا

ما أقدرَ اللهَ أَنْ يُدنِي على شَحَطٍ ... جيرانَ دِجلةَ من جيرانِ جَيْحَانا[٣]

عينُ الزَّمانِ أَصابتْنا فلا نظرتْ ... وعُذِّبت بفنونِ الهَجْرِ أَلوانا

يا ليتَ مَنْ نتمنَّى عندَ خلوتِنا ... إِذا خلا خَلْوَةً يوماً تَمنَّانا

ويُروى[٤] أنّ المأمون (ت٢١٨هـ) لمّا خرج إلى خراسان، كان في بعض الليل جالساً في ليلة مقمرة، إذ سمع مغنياً يغني من خيمة له بالأبيات السابقة، فخرج المأمون من موضعه حتّى وقف على الخيمة، وعلِمَها، فلمّا كان من الغد، وَجَّهَ فأحْضَرَ صاحبَ الخيمة، وهو شابّ، فسأله عن اسمه، فقال: العبّاس بن الأحنف. قال: أنت الذي كنت تقول:

متى يكون الذي أَرجو وآمُلُهُ ... أَمَّا الذي كنتُ أَخشاهُ فقد كانا

(١) العباس بن الأحنف، ديوانه، ص٢٧٩.

(٢) القفول: الرجوع من السفر، وقيل رجوع الجند بعد الغزو.

(٣) شحط: بُعْد. دجلة: نهر ببغداد. جيحان: نهر بالعواصم.

(٤) انظر الخبر في: السّرّاج القارئ، مصارع العشّاق، ١٥٤/١، ١٥٥.

قال: نعم. قال: ما شأنك؟ قال: يا أمير المؤمنين تزوّجت ابنة عمٍّ لي، فنادى مناديك يومَ أسبوعي في الرّحيل إلى خُراسان، فخرجتُ، فأعطاه المأمون رزقَ سنة وردَّه إلى بغداد، وقال: أقم إلى أن تنفقها، فإذا نفدتْ رجعتَ.

وحين يجد الفاتحون أنفسهم في بيئة جديدة، مختلفة عن بيئة الوطن التي اعتادوها، بعيداً عن الأهل والأصدقاء، يقاسون الظروف الطبيعية الصعبة، ولوعة البعد وألم الفراق، وأهوال المعارك والغزوات؛ يتذكرون ديارهم، أيام كانوا ينعمون فيها بطيب العيش ولذّة الحياة، على أرضهم وبين أهلهم، فلا يملكون إلاّ الحنين إليها. فهذا أبو عيينة بن أبي عيينة (توفي بعد ١٩٨هـ) المهاجر الفاتح، كان مع جيوش الخليفة الهادي (ت١٧٠هـ) في غزواته[١] في جُرجان[٢]، طال مقامه فيها، وعبثت مشاعر الغربة بقلبه، فحنّ إلى مدينته البصرة، وذكر نهرها، نهر الأبُلَّة، واشتاق إلى نسائها الحسناوات، وأبنائها الطيبين، فقال[٣]:

أَلا خَبِّروا إِنْ كان عِنْدَكُمُ خَبَرْ ... أَنَقْفُلُ أَمْ نَثْوِي علَى الْهَمِّ والضَّجَرْ

نَفَى النَّوْمَ عَنْ عَيْنِي تَعَرُّضُ رِحْلَةٍ ... بِها الْهَمُّ واسْتَوْلَى بِها بَعْدَهُ السَّهَرْ

فَإِنْ أَشْكُ مِنْ لَيْلِي بِجُرْجَانَ طُولَهُ ... لَقَدْ كُنْتُ أَشْكُو فيه بالْبَصْرَةِ الْقِصَرْ

فَيَا نَفْسُ قَدْ بُدِّلْتِ بُؤْساً بنعمةٍ ... وَيَا عَيْنُ قَدْ بُدِّلْتِ مِن قَرَّةٍ عِبَرْ[٤]

وَيَا حَبَّذاكَ السَّائِلي فِيْمَ فِكْرَتي ... وَهَمِّي أَلا في البصرةِ الْهَمُّ والفِكَرْ

فَيَا حَبَّذا بطنُ الْحَزِيزِ وَظَهْرُهُ ... وَيَا حُسْنَ واديه إذا ماؤُهُ زَخَرْ[٥]

---

(١) انظر: أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص١٧، ١٨.

(٢) جرجان: مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان.

(٣) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص١٤٤، ١٤٥.

(٤) قرّة: القرّة هي السكون وانقطاع الدّمع. عبَر: مفردها عَبْرة، وهي الدموع.

(٥) الحزيز: موضع بالبصرة. زَخَر: كثر ماؤه.

وَيَا حَبَّذا نَهْرُ الأُبُلَّةِ مَنْظَراً ... إذا مَدَّ في إبَّانِهِ النَّهرُ أَوْ جَزَرْ[١]
وَيَا حُسْنَ تِلْكَ الْجارِياتِ إذا غَدَتْ ... مَعَ الْماءِ تَجْري مُصْعِداتٍ وَتَنْحَدِرْ
وَفِتْيانُ صِدْقٍ هَمُّهُمْ طَلَبُ الْعُلاَ ... وَسِيْماهُمُ التَّحْجِيلُ في الْمَجدِ والغَرَرْ[٢]
لَعَمرِي لَقدْ فَارقْتُهمْ غَيْرَ طَائعٍ ... ولا طَيِّبٍ نَفْساً بِذاكَ ولا مُقِرْ
فَيَا نَدَمي إذْ لَيسَ تُغْني نَدامَتي ... وَيَا حَذَري إذْ لَيسَ يَنْفَعُني الْحَذَرْ
وَقائلَةٍ ماذا نَأى بِكَ عَنْهُمُ ... فَقُلْتُ لها لا عِلْمَ لي فَسَلِي الْقَدَرْ
فَيَا سَفَراً أَوْدَى بِلَهْوِي وَلَذَّتي ... وَنَغَّصَني عَيْشي عَدِمْتُكَ مِنْ سَفَرْ[٣]

استولى هاجس الرجوع إلى الوطن في الأبيات السابقة على ذهن الشاعر، من خلال ما يعكسه الفعل بإسناده إلى واو الجماعة (خبّروا) من لهفة حزينة لسماع خبر مفاده القفول من الجيش. ويكشف استحضار صور البكاء والدّموع والقلق وتطاول الليل وكثرة الهموم عن حالته النفسية، التي سيطر عليها القلق والكآبة؛ لما كان يلقاه من آلام الغربة وعذابات الفراق. ثمّ انتقل الشاعر من مقطع الحزن والقلق إلى مقطع الشوق والحنين إلى الوطن بشقيه: المكان (البصرة، الحزيز، نهر الأبلة) والإنسان (الجاريات، فتيان صدق). ويأتي الحديث عن عدم الجدوى من الندم والحذر؛ ليكشف إحساسه باليأس والعجز واستسلامه للأمر الواقع من ناحية، وليعكس شعوره بالندم من ناحية أخرى؛ فيلقي باللوم على القدر في محاولة منه للتخفيف من ندمه.

وقد أسهم توظيف الطباق في الأبيات (نقفل ونثوي، النوم والسهر، طول وقصر، بؤساً ونعمة) في تعميق المفارقة بين الوطن وغيره. كما أنّه يعكس حالةً من الاضطراب.

---

(١) الأُبُلَّة: نهر بالبصرة.
(٢) التحجيل: بياض يكون في قوائم الفرس، وأراد اشتهارهم بصنع الأمجاد.
(٣) نغّص: كدّر.

أمّا تكرار حرف النداء (يا) سبع مرات، والاستفتاح (يا) ثلاث مـرات، و(ألا) مـرتين، مقرونة بأماني وأحاسيس وجدانية، فيوحي بالرجاء والشعور بالضعف، كما أنّ هـذه الحـروف تسهم صوتياً في إعطاء النص نغمةً حزينةً شجية.

لقد أقصت الفتوحات الإسلامية الجند بعيداً عن ديارهم، فأحسّوا الندم عند ابتعادهم عنها، وشعروا بالحيرة والتعجب من الحال التي آلوا إليها، فانتابتهم الهموم والأوجاع، وترقبوا خبـر الرجوع إلى أوطانهم بشغف كبير. فأبو عيينة حين طال فراقه لوطنه وأهلـه؛ شـعر بالوحـدة والوحشة بعيداً عنهم، فاستعان بالبكاء والدموع للتخفيف عما يشعر به من حزن وقلق إذا طـال ليله في جرجان، وهو لا يملك إلا الحنين إلى وطنه العراق ومدينته البصرة، وركوب السفينة في نهر دجلة، وانظر إليه كيف يؤلمه خبر الرحيل إلى الثغور؛ لما سيلاقيه هناك من قوة المرابطة في فصل الشتاء على الجبال، قال[(١)]:

أَلا مـا لِعيْنِـكَ مُعْتَلَّـهْ	ومـا لِـدُموعِكَ مُنْهَلَّـهْ
وكيـفَ بِجُرجـانَ صَـبْرُ امْـرِئٍ	وحيـدٍ بِهـا غَيْـرِ ذِي خُلَّـهْ
وأَطْـولْ بليلِـكَ أَطْـولْ بِـه	إِذا عَـسْكَرَ الْقَـومُ بِالأَثْلَـهْ[(٢)]
ومـا مُـدْنَفٌ بَـيْنَ عُـوَّادِهِ	يُنـادَى وفـي سَـمْعِهِ ثِقْلَـهْ[(٣)]
بـأَوْجَعَ منِّـي إِذا قِيْـلَ لِـي	تأَهَّـبْ إِلـى الـرَّيِّ بالرِّحْلَـهْ[(٤)]

---

(١) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) الأثلة: شجرة طويلة مستقيمة، كثيرة الأغصان، دقيقة الورق.

(٣) عوّاده: زوّاره. مدنف: براه المرض حتى شارف على الموت.

(٤) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال.

وما لِي وللرَّيِّ لولا الشَّقا ءُ إِنْ كنتُ عنها لَفِي عُزْلَهْ
أُكَلَّفُ أَجْبالَها شَاتِياً على فَرَسٍ أَو على بَغْلَهْ
وأَهْوَنُ مِنْ ذاكَ لو سَهْوُهُ رُكُوبُ الْقَراقِيرِ في دِجْلَهْ[١]
تَروحُ إِلْينا بِها طَرْبَةٌ رَواحَ النَّدامى إِلى دَلَّهْ[٢]

ولعلّ أكثر ما يشعل لهيب الوجد والحنين في نفوس الفاتحين هو المرأة التي أحبها، ثمّ فارقها مكرهاً، إن كانت المرأة زوجةً – كما هو الحال عند العباس بن الأحنف– أو محبوبة كما هو الحال عند أبي عيينة، إذ إنّه كان يهوى امرأةً اسمها دنيا، بقي يذكرها عندما هاجر مع الجند إلى جرجان، ويحنّ إليها وإلى وطنه العراق، وهو في قصيدته الآتية، يناجي الحمام، وانظر إلى المشاركة الوجدانية بينه وبين الحمامة، التي أبى أن يرى في صوتها إلا بكاءً لفراق حبيب، مسقطاً عليها ما في نفسه من مشاعر الحزن والحنين، كما يستدعي البكاء والدّموع وسيلةً فنيةً، ويطيل في ذلك؛ ليعبّر عن حزنه وغربته، وليس ذلك وحسب بل إنّه يرى في بكائه علامة وفاء واعتزاز يفخر بها كما يفعل كلّ غريب، وبذلك ينهج نهج شعراء الحنين الأوائل، قال[٣]:

دُنْيَا دَعوتُكِ مُسْمِعاً فَأَجيبي وبما اصْطَفَيْتُكِ في الْهَوَى فَأَثِيبي
دُوْمِي أَدُمْ لَكِ بالصَّفَاء على النَّوَى إِنِّي بعهدِكِ واثِقٌ فَثِقِي بِي
ومن الدَّلِيْلِ على اشْتِياقي عَبْرَتي ومَشِيبُ رَأْسي قَبْلَ حَيْنِ مَشِيبي
أَبْكي إِلَيْكِ إِذا الْحَمَامَةُ طَرَّبَتْ يا حُسْنَ ذاكَ إِلَيَّ مِنْ تَطْرِيبِ

---

(١) القراقير: مفردها قُرْقور، وهي السفينة العظيمة أو الطويلة.
(٢) طربة: خفّة.
(٣) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص ١١٥.

تَبْكـي على فَـنَنِ الْغُـصونِ حَزِيْنَـةً ... حُـزْنَ الْحبيبـةِ مِـن فـراقِ حَبِيْـبِ
وأنـا الغَريـبُ فـلا أُلامُ علـى الْبُكـا ... إنَّ الْبُكـا حَـسنٌ بِكُـلِّ غَريـبِ
أَفَـلا يُنـادَى لِلْـقُفولِ بِرِحْلَـةٍ ... تَـشْفي جَـوَىً مِـن أَنْفُـسٍ وقُلـوبِ

وكثيراً ما عبّر الفاتحون عن ضجرهم من طول المرابطة في الثغور، كما عبّروا عن شعورهم بذلك من خلال تطاول الليل عليهم، ففي أبيات أخرى، يشكو أبو عيينة فيها فراق محبوبته، بعد أن عاش دهراً متمتعاً بقربها، ويبدي سخطه وغضبه على الزمن والأيام، وهو يعمّق الإحساس بالفراق من خلال صورة الزّجاجة المكسورة التي أنَّى لها أن تلتئم؛ مما يعكس إحساسه باليأس وفقدان الأمل، وطول ليله حتّى إنّ نهاره انقلب ليلاً؛ لما يقاسيه من آلام الغربة والفراق، قال[1]:

إِنْ أُفـارِقْهُمُ فَقَـدْ عِـشْتُ دَهْـراً ... فـي سُـرورٍ مِـنْ قُـرْبِهِمْ وابْتِهـاجِ
فَرَمَتْنـا الأَيَّـامُ أَغْفَـلَ مـا كُنْـ ... ـنَا علـى غَفْلَـةٍ بِبَـيْنٍ مُفَـاجِ
فانْـصَدَعْنا صَـدْعَ الزُّجاجَـةِ بَانَـتْ ... كَيْـفَ لِـي بالْتِئـامِ صَـدْعِ الزُّجَـاجِ
طـالَ مِـنْ ذِكْـرِهِ بِجُرْجَـانَ لَيْلِـي ... ونَهـارِي عَلَـيَّ كَاللَّيْـلِ دَاجِـي

وقد حاول أبو عيينة استعطاف الخليفة الهادي، بقصيدة بثَّ فيها حنينه إلى بغداد وأهلها، ضمّنها مديحاً للهادي؛ أملاً بأن يعيده إلى وطنه. وتغلب على القصيدة النغمة الحزينة الشجية، من خلال استحضار البكاء، والمشاركة الوجدانية بينه وبين الحمام، وإبراز المفارقة التي أحدثها

---

(١) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص١٢٢.

الزمن بين الماضي والحاضر، حين انقلب الزمن من الإحسان إلى الإساءة، وقد جـاء تكـرار أسلوب النّداء (يا زماني) موحياً بلهفته في استعادة الذكريات الماضية في وطنه العراق ومدينته بغداد، بين الأصدقاء، قال(١):

كيــفَ صـــبري ومنزلــي جُرجــانُ　　والعِــــراقُ الـــبلادُ والأوطـــانُ
نحــــنُ فيهـــا ثلاثـــــةٌ حلَفـــاءٌ　　ونـــدامى علـــى الْهَـــوَى إِخـــوانُ(٢)
نتـــساقى الْهَـــوَى ونَطْـــرَبُ للذِّكــــ　　ــرِ كمـا تُطْـرِبُ النـشاوى القيـانُ(٣)
وإذا مـــا بكـــى الحَمـــامُ بكينـــا　　لِبُكــــاهُ كأنَّنــــا صِــــبيانُ
يا زَمَـانِي الماضــي ببغـدادَ عـدْ لــي　　طالمــا قــد ســررتني يــا زمــانُ
يــا زَمَــانِي المــسيءَ أَحْـسِنْ فَقِــدَماً　　كــانَ عنــدي مِــنْ فعلــكَ الإحــسانُ
مـا يريــدُ العُــذَّال منــي أمَــا يتــ　　ــركُ أيــضاً بغمِّــهِ الإنــسانُ

ولمّا قرأ هذه القصيدة الخليفة موسى الهادي أمر له بصلة، وأقفله من الجيش إلى وطنه العراق(٤).

وهذا بكر بن النَّطَّاح الحنفي (توفي قبل ٢١١هـ) الشاعر المجاهد، وقد كـان صـعلوكاً يقطع الطريق، وإذ به يقصر عن ذلك ويلتحق بصفوف جيوش الفتوحات الإسلامية في حلوان(٥)؛ طلباً للأجر والثواب من الله، ولكنه ما يلبث أن يمكث هناك حتّى يملكه الحنين إلى مدينته بغداد

---

(١) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص١٨٧.
(٢) حلفاء: مفردها حليف، وهو كل شخص لزم شخصاً فلم يفارقه.
(٣) النشاوى: مفردها نشوان، وهو السكران. القيان: مفردها قينة، وهي الأمة المغنية.
(٤) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص١٧.
(٥) حلوان: قريتان واحدة بالعراق وأخرى بالشام، وقصد حلوان العراق.

مدينته بغداد وأهلها، وبرغم ما يلقاه من قسوة المعارك في يوم العيد فإنّه يتمنى لأصـــحابه فـــي بغداد عيداً هنيئاً، مما يعكس لهفته في قضاء العيد في وطنه وبين أصحابه، قال(١):

هَنِيْئَـــاً لإِخْـــوانِي بِبَغْـــدادَ عِيْـــدُهُمْ وَعِيْـــدِي بِحُلْـــوانٍ قِـــراعُ الْكَتائِـــبِ

وحين يجد بكر بن النَّطَّاح نفسه بعيداً عن دياره، تفصله عنها الأراضي الشاسعة والجبال والفلوات، تعبث مشاعر الغربة بقلبه، ويملؤه الحزن حنيناً إلى وطنه العراق، قال(٢):

فَيَـــا حَبَّـــذا بَـــرُّ العِـــراقِ وَبَحْرُهَـــا وَمَـــا يُجْتَنَـــى فِيْـــه مِـــنَ الثَّمَـــرَاتِ
كَفَى حَزَنَـــاً مَـــا تَحْمِـــلُ الأَرْضُ دُوْنَهَـــا لَنَـــا مِـــنْ ذَرَا الأَجْبَـــالِ والْفَلَـــوَاتِ

ويهيج النّسيم مشاعر بكر بن النطاح، ويذكّره الأحبّة في بغداد، فيشتاق إليهم، ويحنّ إلى بغداد، وإلى أيامه الفائتة فيها، ليالي كان يزور القيان، وتفوح منه رائحة البهار، فلا يملك إلا أن يدعو لها ولساكنيها بالسقيا. وانظر إليه كيف يمدح نفسه، ويجعل الحنين على لـسان النّـساء، قال(٣):

نَـــسِيْمُ المُـــدَامِ وَبَـــرْدُ الـــسَّحَرْ هُمَـــا هَيَّجَـــا الـــشَّوْقَ حَتَّـــى ظَهَـــرْ
تَقُـــولُ: اجْتَنِـــبْ دَارَنَـــا بِالنَّهَـــار وَزُرْنَـــا إِذَا غَـــابَ ضَـــوْءُ القَمَـــرْ
فَـــإِنَّ لَنَـــا حَرَسَـــاً إِنْ رَأَوْكَ نَـــدِمْتَ وَأُعْطُـــوا عَلَيْـــكَ الظَّفَـــرْ
وَكَـــمْ صَنَـــعَ اللهُ مِـــنْ مَـــرَّةٍ عَلَـــيْهِمْ وَقَـــدْ أُمِـــرُوا بِالحَـــذَرْ

(١) الأصفهاني، الأغاني، ١١٤/١٩.
(٢) ابن المعتز، طبقات الشعراء المحدثين، ص٢٥٣.
(٣) الأصفهاني، الأغاني، ١٢٤/١٩.

سَـــــقَى اللهُ بَغْـــــدَادَ مِـــــنْ بَلْـــــدَةٍ وَسَــــاكِنَ بَغْـــدَادَ صَـــوْبَ المَطَـــرْ[١]

وَنُبِّئْـــــــتُ أَنَّ جَـــــوَارِي القُـــــصُو رِ صَـــيَّرْنَ ذِكْـــرِي حَـــدِيْثَ الـــسَّمَرْ

أَلا رُبَّ سَـــــــــائِلَةٍ بِـــــــــالعِرَا قِ عَنِّـــي وَأُخْـــرَى تُطِيْـــلُ الـــذِّكَرْ

تَقُــــــولُ: عَهِــــدْنَا أَبَــــا وَائِــــلٍ كَظَبْـــي الفَـــلاةِ المَلِـــيْحِ الحَـــوَرْ[٢]

لَيَــــالِي كُنْــــتُ أَزُورُ القِيَــــانَ كَـــأَنَّ ثِيَـــابِي بَهَـــارُ الـــشَّجَرْ[٣]

وهذا محمد بن أبي محمد اليزيدي (ت٢١٤هـ) القائد المحارب، ولاه الخليفــة المــأمون مصر وأمره بمحاربة الثائرين بها، فسار إليها مكرهاً على غير رغبة منه؛ لأنّه شعر أنّه يبتعــد عن الوطن والأهل، وهناك عبثت الغربة بقلبه؛ فحنّ إلى بغداد والكرخ والأحبّة، فقال[٤]:

يَــــا قَمَــــرَ الكَــــرْخِ إِنَّ عَبْــــدَكُمْ غَرِيْـــقُ شَـــوْقٍ صَـــرِيْعُ أَسْـــقَامِ

لَــــمْ يُخْـــطِ سَـــهْمُ الفِـــرَاقِ مُهْجَتَـــهُ شُــــلَّتْ يَمِـــيْنُ الفِـــرَاقِ مِـــنْ رَامِ

أَذُوبُ شَـــــوْقاً حَتَّـــــى إِذَا اتْـــــصَلَتْ جُفُــــونُ عَيْنِــــي بِطُــــولِ تَــــسْجَامِ

وهذا عليّ بن الجهم (ت٢٤٩هـ) المحارب المجاهد، سار مع الجيوش الإسلامية لمحاربة الرّوم، فلمّا قرب من مدينة حَلَبَ[٥] خرج عليه اللصوص وجرحوه وأخذوا ما معه، وتركوه على الطريق يراوده الموت، وفي تلك اللحظات الحرجة ازداد ليل الغربة عليه ليلاً آخر بدنو الأجــل

---

(١) صوب المطر: نزوله.

(٢) الحَوَر: شدّة بياض العين وسواد سوادها.

(٣) البهار: نبت طيّب الريح.

(٤) اليزيديون، شعر اليزيديين، ص١١٦.

(٥) حلب: مدينة عظيمة، واسعة كثيرة الخيرات، طيبة الهواء، صحيحة الأديم والمــاء، وهــي قــصبة جنــد قنسرين.

الأجل واقتراب ساعة الوفاة، فشعر بالغربة والبعد عن الوطن، فجعل يحنّ إلى مدينته بغداد وإلى أصحابه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة جريحاً وغريباً بعيداً عن دياره، قال (وهو آخر شعر قاله فبكى كلُّ من كان في القافلة)[١]:

أَزِيدَ فِي اللَّيلِ ليلُ ... أمْ سالَ بالصُّبحِ سيلُ

يا إخْوَتي بِدُجَيْلٍ ... وأينَ منِّي دُجَيْلُ[٢]

وعندما توفي عليّ بن الجهم وُجِدَ في ثيابه رقعة كتب فيها أبياتاً من الشعر، بثّ فيها أحزانه وآلامه، وشعوره بذل الغربة والبعد عن الوطن والأهل، قال[٣]:

وارحمتَا للغريبِ في البَلدِ النَّا ... زحِ ماذا بنفسِهِ صنَعا

فارقَ أحبابَهُ فما انتفعوا ... بالعيشِ مِنْ بعدِهِ ولا انتفعا

كانَ عزيزاً بِقُرْبِ دارِهِمُ ... حتَّى إذا ما تباعدوا خشعا

يقولُ في نأْيِهِ وغربتِهِ ... عَدلٌ مِنَ اللهِ كلُّ ما صنعا

وهذا أحمد بن محمد اليزيدي (توفي قبل ٢٦٠هـ) شارك الجيوش الإسلامية في غزو الرّوم وحماية الثغور، وحين عسكر الجيش في قارا[٤]، طال فراقه لبغداد، فحنّ إليها وإلى مجالس اللهو والشرب فيها، وهو تذكّره الأشجار والأنهار ببلدة قارا بأنهار وأشجار دياره، قال[٥]:

---

(١) علي بن الجهم، ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليل مردم بك، ط٣، ١٩٩٦م، دار صادر، بيروت، ص١٨٣.
(٢) دجيل: اسم شارع في بغداد.
(٣) علي بن الجهم، ديوانه، ص١٥٩.
(٤) قارا: أول عمل من جند دمشق.
(٥) اليزيديون، شعر اليزيديين، ص١٦٨.

يَا قَصْرَ ذَا النَّخَلاتِ مِنْ بَارا　　　إِنِّي حَنَنْتُ إِلَيْكَ مِنْ قَارا[١]

أَبْصَرْتُ أَشْجاراً عَلَى نَهْرٍ　　　فَذَكَرْتُ أَنْهاراً وأَشْجارا

للهِ أَيَّامٌ نَعِمْتُ بِهَا　　　فِي الْقَفْصِ أَحْيانـاً وَفِي بَارَا[٢]

إِذْ لا أَزَالُ أَزُورُ غَانِيَةً　　　أَلْهُو بِهَا وَأَزُورُ خَمَّارا

---

(١) بارا: قرية من أعمال كَلْواذى من نواحي بغداد، بها متنزهات يقصدها أهل البطالة.

(٢) القفص: قرية قريبة من بغداد، من مواطن اللهو، تنسب إليها الخمور الجيدة والحانات الكثيرة.

المبحث الرابع:

الحنين في شعر المرأة

احتلّت ظاهرة الحنين عند شاعرات العصر العباسي الأول حيزاً صغيراً، ومساحةً ضيّقةً، حتّى لا يكاد الباحث يعثر على أبيات قليلة تعبِّر عن حنين المرأة إلى وطنها وأهلها، هذا إذا ما قورنت بغيرها من شاعرات الحنين في العصرين الجاهلي والإسلامي. وربما كان للتحضّر الزاهر الذي أصاب مجتمع هذا العصر، وما حظيت به النساء من مكانة مرموقة، أثرٌ واضحٌ في ذلك. ولعلّ السبب الرئيس في هذه القلة هو أنها لم تعانِ الغربة كالرجل الذي كان يرحل عن وطنه طلباً للرزق، أو خروجاً للجهاد في سبيل الله تعالى، فغربتها – على الأغلب– تكون لسبب عرض كالزواج خارج الأهل والقبيلة.

ولعلّ في شعر عُلَيَّة بنت المهدي (ت٢١٠هـ) خير ما يجسّد حنين المرأة إلى وطنها وأهلها، فحين خرج الخليفة هارون الرشيد إلى الري، أخذ معه أخته عُلَيَّة، فلما صارت معه بالمرج(١)، عبثت بقلبها مشاعر الغربة، فاشتاقت إلى أهلها وحنّت إلى وطنها، فعملت شعراً وغنت به، وهي تستدعي البكاء وسيلة للتعبير عن مشاعر الحزن والفراق، وتخفف من آلامها باستنشاق رائحة الركب القادم من الوطن، مما يدل على عاطفة صادقة، وإحساس مرهف، قالت تحنّ إلى بغداد وأهلها(٢):

ومغتربٍ بالمرجِ يبكي لِشَجْوِهِ وقد غاب عنه المُسْعِدونَ على الحُبِّ

(١) المرج: هو مرج القلعة بينه وبين حلوان منزل وهو من حلوان إلى جهة همذان.

(٢) علية بنت المهدي، ديوان علية بنت المهدي، جمع وتحقيق سعدي ضناوي، ١٩٩٧م، دار صادر، بيروت، ص٢١.

إذا ما أتاهُ الرّكْــبُ مــن نحــوِ أرضِــهِ تَنَـــشَّقَ يستـــشفي برائحـــةِ الرّكْـــبِ

فلما سمع الرّشيد الصوت، علم أنها قد اشتاقت إلى العراق وأهلها به، فأمر بردها.

والظاهر في الكثير من شعر عليّة أنّ أخاها الرشيد كان له سلطان عليها، وكانت تحترم سطوته وتخشى جانبه.[١] فعندما كان بالرّقة اشتاق إليها، فطلب منها أن تأتيه، فذهبت وقالت في طريقها تحنّ إلى بغداد[٢]:

اشرب وغــنّ علــى صــوتِ النــواعيرِ ما كنتُ أعرفهــا لــولا ابــنُ منــصورِ

لـــولا الرجـــاءُ لمـــن أمَّلـــتُ رؤيتـــهُ ما جُزْتُ بغــدادَ فـــي خــوفٍ وتغريــرِ

يبدو حبّ الشعرة لوطنها بغداد في الأبيات السابقة واضحاً جلياً، فهي لا تريد الخــروج منها، ولكن الظروف دفعت بها إلى الخروج.

وهذه أحدى الجواري وهي عِنَان (ت٢٢٦هـ) تحنّ إلى قاطول[٣]، وتدعو لهــا بالــسقيا، قالت[٤]:

سَـــــقْيا لِقَـــــاطُولَ لا أَرى بَلَـــــداً يَـــــسْكُنُهُ الـــــسَّاكِنونَ يُــــشبهُها

أَمْــــنٌ وخَفْــــضٌ ومــــا كَبَهْجَتِهَــــا أَرْغَــــدُ أَرْضٍ عَيْــــشاً وأَرْفهُهــــا

---

(١) جورج غريب، شاعرات العرب في الإسلام، ١٩٨٥م، دار الثقافة، بيروت، ص٢٤٧.

(٢) علية بنت المهدي، ديوانها، ص٣٣.

(٣) قاطول: اسم نهر مقطوع من دجلة، وهو موضع بسامراء.

(٤) الأصبهاني، الإماء الشواعر، تحقيق نوري حمودي القيــسي ويــونس أحمــد الــسامرائي، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، عالم الكتب، بيروت، ص٢٩.

ولعلّ الشوق والحنين أول المشاعر التي تفصح عنها الشاعرات، لحظة ابتعادهنّ عن الأهل والوطن، فهذه قمر الجارية، ابنة بغداد، رمت بها الأقدار في بلاد الأندلس، بعيداً عن الوطن والأحباب، فظلّت تشتاق إلى بغداد حتّى توفِّيت، قالت(١):

آهاً على بَغْدَادِها وعِراقِها ... وظِبائِها والسِّحرِ في أَحْداقِها
ومَجالِها عِنْدَ الفُراتِ بأَوْجُهٍ ... تَبْدو أَهِلَّتُها على أَطْواقِها
مُتَبَخْتِراتٍ في النَّعيمِ كأَنَّما ... خُلِقَ الهَوى العُذْريُّ مِنْ أَخْلاقِها
نَفْسي الفِداءُ لها فأَيُّ مَحاسِنٍ ... في الدَّهْرِ تُشْرِقُ مِنْ سَنَا إِشْراقِها

وهذه جارية أخرى قذفت بها الغربة بعيداً عن وطنها العراق وساكنيها، لكن قُدِّر لها الرّجوع إلى العراق، فلمّا بلغت القادسية واقتربت من ديارها، ازداد حنينها وشوقها لمن تحبّ، فأنشأت تقول(٢):

لمّا وَرَدنَا القَادِسِيْـ ... ـيَة حيثُ مجْتَمَعُ الرِّفَاقِ
وَشممتُ من أرْض الحِجَا ... زِ نَسيمَ أنفاسِ العِرَاقِ
أيْقَنتُ لي ولمَن أُحِـ ... ـبّ بجمعِ شَملٍ واتّفاقِ
وَضَحِكتُ من فَرحِ اللّقا ... ء كما بَكيتُ من الفِرَاقِ

---

(١) بشير يموت، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، دار القلم العربي، حلب، ص٣٣٢.
(٢) السرّاج القارئ، مصارع العشاق، ص١٧١.

الفصل الثاني:

الغربة في شعر العصر العباسي الأول.

الغُرْبَة مفهوم يعني البعد عن الوطن، فقد جاء في لسان العــرب[١]: (الغَــرْب الــذّهاب والتنحّي عن النّاس. والغُرْبَة والغَرْب النَّوَى والبُعْد، ونوىً غَرْبَة أي بعيدة، وغُرْبَة النَّوى بُعدها، والنَّوى هو المكان الذي تنوي أن تأتيه في سفرك. ويقال دارهم غَرْبَة أي نائية، وأغْرَبَ القــوم أي انتَؤوا، وغَرَبَ أي بَعد، والتَّغرّب البعد. والغُرْبَة والغُرْب النُّزُوح عن الوطن. ويقال رجــل غُرْب وغَرِيب والجمع غُرَباء، وامرأة غريبة).

والغربة معاناة وألم وحرقة يستشفّها المرء من خلال الأفعال والأقوال، ومــا هــي إلا انعكاس للواقع المرّ الذي يعيشه الإنسان، سواء أكان ذلك في ابتعاده عن وطنه الذي عاش على أديمه، وتنسّم هواءه، وشرب من عذب مياهه، وتغذّى من خيراته، أو نأيه عن أهله وأصــحابه، أو افتراقه عن أحبّته.[٢]

وترتبط الغربة بالحنين، حيث تتشابك المشاعر والأحاسيس، ويصعب الفصل بينهما في أحيان كثيرة، فالغربة ألم ومعاناة تفضي بصاحبها إلى الحنين، إذ لا وجود له إلا بها، فهي سابقة عليه، ومشتركة معه، وهي الدافع الرئيس له. ومن يغترب لم يزل في همّ وغمّ وذلّة بعد أن كان عزيزاً في وطنه مع أهله وأحبّته وأصحابه، فما إن اغترب حتى أمسى في ذلّة وهوان[٣]. وهذا ما عبَّر عنه الشاعر أدقّ تعبير، بقوله[٤]:

أَلا لَيْــتَ شِــعْرِي والحَــوَادِثُ جَمَّــةٌ　　مَتَى تَجْمَــعُ الأَيَّــامُ يَوْمــاً بِنَــا الــشَّمْلا

وَكُــلُّ غَرِيْــبٍ سَــوْفَ يُمْــسِي بِذِلَّــةٍ　　إِذَا بَــانَ عَــنْ أَوْطَانِــهِ وَجَفَــا الأَهْــلا

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة (غرب).

(٢) انظر: إبراهيم، الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام، ص٩.

(٣) انظر المرجع السابق، ص٩ وص٤٣.

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٤٠٤/٢.

وممّا يؤكّد حبّ الوطن، والتّمسّك به، وصعوبة الخروج منه، والنّزوح عنه، قول الله تعالى حين ذكر الدّيار، يخبر عن مواقعها من قلوب عباده، قال: (لو أنّا كتبْنا عليهمْ أن اقْتلوا أنْفُسكُمْ أو اخْرجُوا من دياركم ما فعلوه إلاَّ قليلٌ منهم)(١). فسوَّى بين قتل أنفسهم وبين الخروج من ديارهم. وقال تعالى: (وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أُخرجنا من ديارنا وأبنائنا)(٢). فجعل القتل ثأراً للجلاء. وقال النبيّ، صلى الله عليه وسلّم: الخروج عن الوطن عقوبة(٣).

وقد أوردت كتب الأدب من الأقوال والأمثال والحكم، ما لا يحبّذ الغربة والنّزوح عن الوطن والأهل؛ لما لها من آثار سيئة على الغريب، منها قولهم: لا تنهض عن وكرك فتنقُصك الغُرْبة، وتَضيمَك الوَحدة(٤). وقالوا: عُسرك في دارك أعزُّ من يُسرك في غربتك(٥). وقال بعض الأدباء: الغربة ذِلَّة، والذِّلَّة قِلَّة(٦). وقالوا: الغربة ذلَّة، فإن ردفتها علّة، وإن أعقبتها قلّة، فتلك نفس مضمحلّة(٧). وقالت أعرابية: إذا كنت في غير أهلك فلا تنسَ نصيبك من الذُّلِّ(٨). وقيل لبعض الأعراب: ما الغبطة؟ قال: الكفاية مع لزوم الأوطان، والجلوس مع الإخوان. قيل: فما الذِّلَّة؟ قال: التنقل في البلدان، والتَّنحِّي عن الأوطان(٩).

---

(١) سورة النّساء، الآية: ٦٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.

(٣) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ١٠٤. والبيهقي، المحاسن والمساوئ، ٣٤٢. وابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ٣٩.

(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢/٣٩٠. والمحاسن والأضداد، ١٠٤. والبيهقي، ٣٤٤. وابن المرزبان، ٦٥.

(٥) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢/٣٨٦. والمحاسن والأضداد، ١٠٤. والبيهقي، ٣٤٤. وابن المرزبان، ٥٥.

(٦) الجاحظ، المحاسن والأضداد، ١٠٤. والبيهقي، ٣٤٤. وابن المرزبان، ٦٥.

(٧) البيهقي، ٣٤٤. وابن المرزبان، ٦٥.

(٨) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢/٣٩١. وابن المرزبان، ٦٦. والعسكري، ديوان المعاني، ٢/١٨٩.

(٩) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٢/٤٠٧. والمحاسن والأضداد، ١٠٤. والبيهقي، ٣٤٤. وابن المرزبان، ٥٦. والأبشيهي، المستطرف في كل فن مستظرف، ٢/٢٦٦.

كما أوردت هذه الكتب ما يعبّر عن حال الغريب بعيداً عن وطنه وأهله، وما يصيبه من الذّلّ والضيم، فشبّهوا حاله بحال الثّور البعيد عن وطنه، والعير النّاشط عن بلده، والغرس الذي زايل أرضه، واليتيم الذي فقد أبويه، فقالوا: الغريب النائي عن بلده، المتنحّي عن أهله، كالثور النادِّ عن وطنه، الذي هو لكلِّ رامٍ قَنيصة[١]. وقيل: الجالي عن مسقط رأسه ومحلِّ رضاعِه، كالعير الناشط عن بلده، الذي هو لكل سبعٍ قَنيصة، ولكلِّ رامٍ رَميّة[٢]. وقيل: الغريب كالغَرْس الذي زايل أرضه، وفقد شِرْبه، فهو ذاوٍ لا يثمر، وذابلٌ لا ينضُر[٣]. وقالت الحكماء: الغريب كاليتيم اللَّطيم الذي ثَكِلَ أَبَويه، فلا أُمَّ ترأمه، ولا أَبَ يَحدِب عليه[٤]. وفي المثل: أوضح من مرآة الغريبة[٥].

وقد عبّر شعراء العصر العباسي الأول، عن معاناتهم في غربتهم، وما يصيبهم من هموم وأحزان بعيداً عن أوطانهم وأهلهم، وبثّوا لواعجهم وكوامن نفوسهم بأبيات وقصائد بديعة، وجديدة لم تعهد من قبل، فوصفوا الغربة والنّزوح، وصوّروا حال الغريب، وما يصيبه من أوجاع في غربته، آخذين من وسائل من سبقهم، ومجددين في الصور والمعاني والألفاظ، مع شيء من الخيال غير المعهود. فهذا بشار بن برد (ت١٦٧هـ) عندما مرّ ذات يوم بباب الطاق[٦]، فسمع صياح قمريةٍ فقال لغلامه: انطلق فإن وجدت هذه القمرية بجناحها فاشترها ولو بوزنها ذهباً، فوجدها بجناحها، فاشتراها بثلاثة دنانير، فأخذها فلمسها بيده، ثم قال[٧]:

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٣٨٥/٢.
(٢) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٣٨٦/٢. والمحاسن والأضداد، ١٠٤. والبيهقي، ٣٤٤. وابن المرزبان، ٦٦.
(٣) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٣٨٧/٢. والمحاسن والأضداد، ١٠٤. والبيهقي، ٣٤٤. وابن المرزبان، ٦٦.
(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٣٩٠/٢. والمحاسن والأضداد، ١٠٤. والبيهقي، ٣٤٤. وابن المرزبان، ٦٥.
(٥) الجاحظ، رسائل الجاحظ، ٣٩٢/٢.
(٦) باب الطاق: محلة كبيرة ببغداد بالجانب الشرقي تعرف بطاق أسماء.
(٧) الأبيات كلها لبشار بن برد: ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ص٧١ وليست في ديوانه. وسبعة أبيات منها مع اختلاف في الرواية لعبد الله بن طاهر في: الحموي، معجم البلدان، ٣٦٦/١.

ناحَـــــتْ مُطوَّقـــــةٌ ببـــــابِ الطَّـــــاقِ   فجَـــرَتْ ســـوابقُ دَمْعِـــكَ المُهْـــرَاقِ[١]

طَرِبَـــتْ إِلـــى أَرْضِ الحِجَـــازِ بحُرْقَـــةٍ   فَـــشَجَتْ فُـــؤَادَ الهَـــائمِ المُـــشْتَاقِ

لُعِـــنَ الفِـــراقُ وَجُـــذَّ حَبْـــلُ وَتِينِـــه   وسَـــقَاه مِـــنْ سُـــمِّ الأَســـاوِدِ سَـــاقي[٢]

يـــا وَيْحَـــهُ مـــا قَـــصَدُه قُمريَّـــةً   لـــم تَـــدرِ مـــا بَغْـــدَادُ فـــي الآفـــاقِ

كانـــت تُفَـــرِّخُ فـــي الأَراكِ وربَّمـــا   كانـــتْ تُفَـــرِّخُ فـــي فُـــرُوعِ الـــسَّاقِ[٣]

فأتى الفِـراقُ بِهـا العِـراقَ فأصـبحتْ   بعـــدَ الأنـــيسِ تَنُـــوحُ فـــي الأَســـواقِ

فُجِعَـــتْ بأفرخِهـــا فأسْـــبَلَ دمعهـــا   إنَّ الـــدُّموعَ تبـــوحُ بالمـــشتاقِ[٤]

بي مثلُ مـا بـك يـا حمامـةُ فاسـألي   مـــن فـــكَّ أســـركِ أنْ يَحُـــلَّ وِثـــاقي

إنَّ الحمـــائمَ لـــم تَـــزَلْ بحَنينِهـــا   قِـــدماً تُبَكِّـــي أَعْـــيُنَ العُـــشَّاقِ

ثمّ أطلقها.

إنّ ما قام به بشار بن برد، من شراء للقمرية ولمسها ومناجاتها ثمّ إطلاقها، لا يصدر إلا عن شاعر مرهف رقيق الإحساس، ولعلّ ما دفعه إلى ذلك هو شعوره بضيق الغربة، وفقده بصره وما تركه من معاناة على نفسيته. فأسقط على هذه الحمامة أحاسيسه ومشاعره، وجعل منها معادلاً موضوعيّاً لغربته، فتخيّلها غريبة ابتعدت عن موطنها، وفقدت فراخها، وأصبحت تنوح في أسواق مدينة بغداد، بعيداً عن بيئتها بين أشجار الأراك. وكما أنّه أبى أن يرى في ما تبديه من أصوات إلا بكاء ونواحاً؛ فهيّج ذلك مشاعره، فبكى وحنّ وبدا يلعن الفراق.

---

(١) ناحت: نوح الحمامة هو ما تبديه من صوتها على شكل النّواح. المهراق: المراق.

(٢) جذّ: قطع. وتينه: الوتين هو عرق في القلب إذا انقطع مات صاحبه. الأساود: جمع أسْوَد، وهو العظيم من الحيّات وفيه سواد، وهو من أخبث الحيّات وأنكاها.

(٣) تفرّخ: أي تصبح ذات أفراخ. الأراك: شجر معروف يتّخذ منه السواك.

(٤) أفراخها: جمع فرخ، وهو ولد الطائر. أسبل: هطل.

ويوحي قوله (لم تدرِ ما بغداد في الآفاق... فأتى الفراق بها العراق) بشعوره بالغربة في العراق وبغداد. وتأتي الأبيات الأخيرة لتأكيد موقف شعراء الغربة من الحمام، وما يثيره في نفوسهم من مشاعر الشوق والحنين، ولجوئهم إليه لتّخفيف من معاناة الغربة والفراق، ومناجاته ومشاركته عواطفهم؛ ذلك بأنّهم رأوا فيه شبيهاً لهم في غربتهم وحنينهم.

لقد أكثر شعراء الحنين والغربة من مناجاة الحمام – منذ القدم– واستمرّ ذلك في العصر العباسي، كما أنّهم أكثروا من ذكر النّخل، لما كان له من دور في تذكيرهم أوطانهم وأهله، وقد يذهبون إلى أبعد من ذلك، فيجسّدون من هذه الشجرة إنساناً، يخلعون عليها مشاعرهم وعواطفهم. فهذا مطيع بن إياس (ت١٦٩هـ) وقد كان له جارية يحبها فاضطر يوماً إلى بيعها، ثم خرج حزيناً من الرَّيِّ[١] إلى حلوان[٢]، فرأى هناك نخلتين تتجاوران وتتلازمان، فذكّره ذلك ما كان من صاحبته، وأثار آلامه، فقال يشكو الغربة والفراق[٣]:

أسْعِداني يا نخلَتَي حُلْوانِ	وابكياني من ريبِ هذا الزَّمانِ[٤]
واعْلما أنَّ ريبَهُ لم يزلْ يفـْ	ـرِق بين الأُلاَّفِ والجيرانِ
ولعَمْري لو ذقتما ألمَ الفر	قة أبكاكما الذي أبكاني
أسْعِداني وأيقنا أنَّ نحساً	سوفَ يأتيكما فتفترقانِ
كم رمتني صروفُ هذي اللَّيالي	بفراقِ الأحبابِ والخلاَّنِ[٥]

(١) الري: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات وهي محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال.
(٢) حلوان: حلوان العراق، وهي في آخر حدود السواد مما يلي الجبال من بغداد.
(٣) الحموي، معجم البلدان، ٣٣٥/٢. والبصري، الحماسة البصرية، ٢٢٤/٢.
(٤) ريب: الرّيب هو صرف الدّهر.
(٥) صروف: جمع صرف، وهو حدثان الدّهر ونوائبه.

غيـــر أنِّـــي لـــم تلـــقَ نفـــسي كمـــا لا قيـــت مـــن فرقـــةِ ابنـــةِ الـــدهقانِ[١]

جـــارةٌ لـــي بـــالريِّ تُـــذهبُ هَمِّـــي ويـــــسلِّي دُنُوُّهـــــا أَحزانـــــي

فجعتنـــي الأيـــامُ أغـــبطَ مـــا كـــنْـ ـــتُ بـــصدعٍ للبـــينِ غيـــر مُـــدانِ

وبزَعْمـــي أنْ أصـــبحتْ لا تراهـــا الْـــ ـــعينُ منـــي وأصـــبحتْ لا ترانـــي

جسّد الشاعر في الأبيات السابقة من النّخلتين (نخلتي حلوان) حبيبين ينعمان بالقرب من بعضهما، ووظّفهما في تذكيره بوطنه الريّ وحبيبته التي فقدها، ولجأ إليهما ليخفّف عن نفسه ما يشعر به من ألم الغربة والفراق، وقد أفصح من خلال مناجاتهما عمّا يعانيه من ضيق وانكسار. وسيطرت مشكلة الغربة وفراق الوطن (الريّ) والحبيبة على الأبيات، وهو ما يوحي به تكـرار لفظة الفراق ومشتقاتها خمس مرات (يفرق، الفرقة، تفترقان، فراق، فرقـة). ويـأتي تكـرار العبارات (ريب هذا الزّمان، ريبه، صروف هذي الليالي، فجعتني الأيام) ليعكس موقف الشاعر الساخط على الزمن والدّهر.

وهذا الأحيمر السعدي (ت١٧٠هـ) كان لصّاً فاتكاً، من أهل بادية الشّام، فـأتى العـراق وقطع الطريق، فطلبه أمير البصرة سليمان بن علي، وأهدر دمه، فهرب، وتبرّأ منه قومه، وطال زمن مطاردته، فشعر بالغربة، وحنّ إلى وطنه، وإلى أصحابه، وانظر إليه كيف يذكّره شـجر الدّوم في الغربة بنخلات دياره فيدعو لها بالسقيا، قال[٢]:

لـئن طـال ليلـي بـالعراق لربمـا أتـى لـيَ ليـلٌ بالـشَّآمِ قـصيرُ

معـي فتيـةٌ بـيض الوجـوهِ كـأنَّهم على الرحلِ فـوقَ النَّاعجـاتِ بـدورُ[٣]

---

(١) الدّهقان: هو التّاجر.

(٢) الحموي، معجم البلدان، ٢/٥٥٠.

(٣) الرّحل: مركب للبعير والنّاقة. النّاعجات: الإبل البيض الكريمة.

أيـــا نخـــلاتِ الكـــرمِ لا زال رائحـــاً عليكنَّ منهـــلُّ الغمـــامِ مطيـــرُ[١]

سُـــقيتُنَّ مـــا دامـــت بكرمـــان نخلـــةٌ عـــوامرَ تجـــري بيـــنهنَّ بُحُـــورُ[٢]

ومـــا زالـــت الأيـــامُ حتَّـــى رأيتنـــي بـــدَوْرَقَ مُلْقَـــىً بيـــنهنَّ أدورُ[٣]

تـــذكِّرني أطلالَكـــنَّ إذا دجـــتْ علـــيَّ ظِـــلالُ الـــدَّومِ وهـــي هجيـــرُ[٤]

وقـــد كنـــتُ رمليَّـــاً فأصـــبحتُ ثاويـــاً بـــدَوْرَقَ ملقـــىً بيـــنهنَّ أدورُ[٥]

عوى الذئبُ فاستأنستُ بالـذئبِ إذ عـوى وصَـــوَّتَ إنـــسانٌ فكـــدتُ أطيـــرُ

رأى اللهُ إنِّـــي للأنـــيسِ لـــشانئٌ وتُبْغِـــضهم لـــي مُقلَـــةٌ وضـــميرُ

تكشف الأبيات السابقة، من خلال مقارنة الشاعر بين الليل في غربته في العراق، والليل في وطنه بادية الشام عن قلقه واضطرابه، فليل الغريب طويل لكثرة ما يعتريـه مـن همـوم وأحزان، خاصّةً في مثل حال الأحيمر السعدي الذي أُهْدِر دمه، وتبرّأ منه قومه، فلا بدّ أنّه كان مع غربته خائفاً من القتل في أيّ لحظة. فأصبح يحنّ إلى وطنه ويتذكّر أصحابه الصعاليك الذين يشتركون معه في الفقر والهموم. كما يشف البيتان الأخيران عـن موقـف الـشاعر الـرّافض للمجتمع والإنسان، فهو يطمئنّ لسماع صوت الذئب، وفي المقابل يفزع لسماع صوت الإنسان، ثمّ إنّه يصرّح بكرهه وبغضه للإنسان؛ ويوحي ذلك بشعوره بنوع آخر من الغربة وهي الغربـة النفسيّة بين الناس.

---

(١) الكرم: اسم موضع. منهلّ: شديد الانصباب، من قولهم هلّ السحاب إذا أمطر بشدّة. الغمام: السحاب.

(٢) كرمان: ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن بـين فـارس ومكـران وسجـستان وخراسان، يحدها من الشرق مكران، ومن الغرب فارس، ومن الشمال خراسان، وهي كثيرة النخـل والـزرع والمواشي.

(٣) دورق: بلد بخوزستان وهو قصبة كورة سرق، يقال لها دورق الفرس.

(٤) دجت: سترت. الدّوم: شجر ضخم معروف، يشبه النّخل وينبت المُقْل. هجير: نصف النّهار إذا اشتدّ الحرّ.

(٥) رملياً: نسبة إلى الرمل وهو موضع. ثاوياً: مقيماً.

وهذا العباس بن الأحنف (ت١٩٢هـ) ممن خاضوا تجربة الغربة، وذاقوا مرارتها، وأحسّوا بذل الغريب وهوانه في بعده عن أهله ووطنه. ولعلّ قصيدته الآتية، مما يُعَدّ تجديداً في شعر الغربة لم يعهد من قبل؛ فهو يوظّف أسلوب القصّ في التعبير عن قسوة الغربة وذلّ الغريب، من خلال صورة الرّجل الذي جمع مع الغربة، المرض وقلّة الحيلة في تلك الأرض القفراء الخالية، لا يملك القدرة على الرجوع إلى وطنه وأهله، ولا يدرون ما حاله، وإذا ما أتيح له ركب مع التجّار فحملوه معهم، حتى إذا سلكوا المهامه والقفار غرضوا منه وتركوه خلفهم غريباً سقيماً ينتظر الموت، قال[(١)]:

رَجُلٌ تطاولَ سُقمُه في غُربةٍ ... نَزَحَتْ بِهِ عَنْ أَهلِهِ الأَسْفارُ
لا يستَطِيعُ مِنَ الضَّرورَةِ حِيلَةً ... أَمْسَى تُرَجَّمُ دُونَهُ الأَخبارُ[(٢)]
حَتَّى أُتِيحَ لَهُ – وذاكَ لِحَينِهِ– ... رَكْبٌ رَمَتْ بِهِمُ الفِجاجُ تِجَارُ
حَمَلُوهُ بَينَهُمُ نَحِيلاً جِسْمُهُ ... عَارِي العِظَامِ ثِيابُهُ أَطمَارُ[(٣)]
فثَوَى تُقَلِّبُهُ الأَكُفُّ مُلَقَّفاً ... ولَهُ تُشَدُّ وتُوضَعُ الأَكْوارُ[(٤)]
حَتَّى إذا سَلَكوا بِهِ فِي مَهْمَهٍ ... قَفْرٍ تَضِلُّ بِهِ القَطا وتَحارُ
غَرِضُوا مِنَ النِّضْوِ العَلِيلِ فَعَطَّلُوا ... مِنْهُ الرِّكابَ وَخَلَّفُوهُ وَسَارُوا[(٥)]

تعكس العبارات (تطاول سقمه، عاري العظام، ثيابه أطمار، ثوى تقلّبه الأكف ملقفاً، النضو العليل) من شعور بالعجز والألم أمام اجتماع المرض مع الغربة. كما أسهمت صورة

---

(١) العباس بن الأحنف، ديوانه، ص١١٧، ١١٨.

(٢) ترجّم: من الرّجم وهو القول بالظّنّ والحدس.

(٣) أطمار: جمع طِمْر، وهو الثوب الخلَق.

(٤) ملقف: من اللّقف وهو تناول الشيء يرمى به إليك، ويريد تتناوله الأيدي. أكوار: جمع كُوْر، وهو رحل الناقة.

(٥) غرضوا: ضجروا وملّوا. النّضو: الدّابة التي هزلتها الأسفار أذهبت لحمها.

القطا التائهة (في مهمه قفر تضلّ به القطا وتحار) في تعميق معنى الغربة، والشعور بالضياع، والعجز عن الرجوع إلى الوطن والأهل.

ويعدّ البكاء من أكثر الوسائل التي يلجأ إليها شعراء الغربة للتنفيس عن ضيقهم، وهم غالباً ما يشتركون بكثرة الشكوى من البعد والفراق، والإحساس بالندم على ترك الأهل والوطن، وهذا ما عبر عنه العباس بن الأحنف، بقوله(١):

بكَى وشَكَا لِغُرْبَتِهِ الغرِيبُ ... وطَالَ بِهِ علَى النَّأي المَغِيبُ

ومَا هَذا بأَعجبَ مِن خُروجِي ... وتَرْكِي بلْدةً فِيهَا الحبِيبُ

تَفِيحُ لِيَ الصَّبابةَ كلُّ رِيحٍ ... ويَهدِي لِي نسِيمَكُمُ الجَنُوبُ

والغربة ألم في النفس البشرية، ومعاناة وحرقة تظهر آثارها على جسد الغريب، ففي منظر العباس بن الأحنف ما يخبر عن كربته وغربته عن أهله، فهو دائم الحنين إليهم، قال(٢):

كفى بما في منظري ... مُخَبِّراً عن كُرَبِي

ذو غربةٍ عن أهلهِ ... مُجْتَهِدٌ في الطَّلَبِ

ولعلّ أحرج اللحظات التي تمرّ على الغريب، هي لحظة الموت بعيداً عن الأهل والوطن، وحين لا يجد الغريب من يواسيه في هذه الحالة الحرجة، تراه يبكي، ويناجي الحمام، ويبثّ من خلال ذلك أحزانه. فالعباس بن الأحنف حين قصد البصرة في آخر عمره، أدركته

(١) العباس بن الأحنف، ديوانه، ص٤٦.
(٢) المصدر السابق، ص٥٦.

المنية هناك في باديتها، غريباً عن وطنه وأهله، سمع بكاء حمامة؛ فهيجت مشاعره، فبكى وحنّ إليهم، وانظر إلى هذه المشاركة الوجدانية بينه وبين الحمام، قال(١):

يا غريبَ الدارِ عن وَطَنِهْ		مُفْرَدَاً يبكِي على شَجَنِهْ
شَفَّهُ ما شَفَّنِي فَبَكَى		كُلُّنا يَبْكي على سَكَنِهْ
ولقد زادَ الفؤادَ شَجاً		طائرٌ يبكِي على فَنَنِهْ
كُلَّما جَدَّ البُكاءُ به		دَبَّت الأَسقامُ في بَدَنِهْ

والغريب متعلّق بوطنه ومن هم فيه من الأهل والأحبّة، دائم الشوق والحنين إليهم، لا يغيره عن عهده الزمن، مهما طالت به الغربة، وهذا هو حال العباس بن الأحنف الذي أفنى الحنين دموعه، قال(٢):

ونازحِ الدارِ أَفنى الشَّوقُ عبرتَهُ		أَمسى يَحِلُّ بلاداً غيرُها الوَطَنُ
يزدادُ شوقاً إذا دارٌ به نزحتْ		فما يُغيِّرُهُ عن عهدِهِ الزَّمَنُ

وهذا سفيان بن عيينة (ت١٩٨هـ) جسمه في الغربة وروحه في الوطن، وهو يعبّر عن تعلّقه بوطنه وحبّه الشديد له، كما أنّه يقاسي ألم الغربة والبين، قال(٣):

جِسْمِي مَعي غَيرَ أنَّ الرُّوحَ عِندكم		فالجسمُ في غُرْبَةٍ والرُّوحُ في الوَطَنِ
فَلْيَعْجَب النَّاسُ مِنِّي أنَّ لي بَدَناً		لا رُوحَ فيهِ ولي رُوحٌ بلا بَدَنِ

---

(١) العباس بن الأحنف، ديوانه، ص٢٧٨.
(٢) المصدر السابق، ص٢٦٩.
(٣) ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ص٨٦.

والغربة ذلّ وهوان، فالغريب دائم الخوف والخضوع، ولعلّ الشافعي (٢٠٤ت‌هـ) قد صوّر ذلك أجمل تصوير، حين صوّر خوف الغريب بخوف السارق، وخضوعه بخضوع المدين، وذلّه بذلّ العاشق، وإذا ما تذكّر أهله – حين كان بينهم عزيزاً – لم يزل في اضطراب، فقال(١):

إنَّ الغريبَ لهُ مخافةُ سارقٍ ... وَخُضُوعُ مَدْيونٍ وَذِلَّةُ وامقِ

فإذا تَذَكَّرَ أَهلَهُ وبِلاَدَهُ ... ففؤادهُ كجناحِ طيرٍ خافقِ

وقد يضطرّ الشافعي في غربته، أن يجامل الحمقى من أهل البلد، وأن يجري على أخلاقهم وسننهم، حتى ولو خالفت ما ألفه من خلق وما اعتاد عليه من سلوك، قال(٢):

وأنزلني طولُ النوى دارَ غربةٍ ... إذا شئتُ لاقيتُ أمراً لا أشاكلهْ

فحامقته حتى يقالَ: سجيةٌ ... ولو كان ذا عقلٍ لكنتُ أعاقلهْ

وكثيراً ما يحاول الغرباء التخفيف عن أنفسهم من خلال مناجاة الحمام، فيجعلونه مثيراً لمشاعرهم، ومعادلاً موضوعياً لغربتهم، فهذا مسلم بن الوليد (ت٢٠٨هـ) حين كان في جرجان والياً على البريد، شعر بالغربة بعيداً عن أهله ووطنه العراق، فقال(٣):

هذي الحماماتُ إنْ بكتْ ودَعتْ ... أسعدَها في بكائِها الفَنَنُ

فَمنْ على صَبوتي يساعدُني ... إذا جفاني الحبيبُ والسَّكَنُ

---

(١) الشافعي، ديوانه، ص٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص١٣٧.

(٣) صريع الغواني، شرح ديوان صريع الغواني، تحقيق سامي الدهان، ط٣، د.ت، دار المعارف، القاهرة، ص١٧٣.

وقد أكثر أيضاً شعراء الغربة من ذكر النخل، وصوّروه بالإنسان الغريب، وذلك لما لهذه الشجرة من دور في تذكيرهم بأهلهم وأوطانهم، فلمّا احتضر مسلم بن الوليد في جرجان، نظر إلى نخلة في تلك اللحظة الحرجة، وقال(١):

ألا يا نخلةً بالسَّفْـ ـحِ من أكنافِ جُرْجانِ
ألا إنِّي وإياكِ بِجُرجانَ غريبانِ

ثمّ مات عند آخرهما.

وقد كان الطيف والخيال مما يسعف شعراء الغربة، ويخفّف عنهم ألم الغربة والفراق، ويشبع شوقهم وحنينهم إلى أهلهم وأوطانهم، فهذا كلثوم بن عمرو العتّابي (ت٢٢٠هـ) حين يراوده الإحساس بمرارة الغربة، يستدعي الخيال ليخفف من وطأتها، قال(٢):

إذا أشْحَطَتْني عن أخٍ غُرْبَةُ النَّوى وزايلَ طَرفي طَرفهُ قام في وهمي
أصوِّرُهُ بالقلبِ حتَّى كأنَّما يُحيطُ به في كلِّ أحوالِهِ علمي
وأقصى جَوىً من علَّةِ الشَّوقِ بَعْدَما تضمَّنت الأحشاءُ مني على سقْمي

ولعلّ كثرة السفر والترحال من أكثر المواضيع التي كانت تقلق الشعراء، فأكثروا الشكوى لكثرة التنقل بين البلدان، والخوف من الموت بعيداً عن الأهل والوطن، فالعتّابي يتساءل متعجباً من كثرة الترحال وتطاول الغربة بعيداً عن الأحبّة، قال(٣):

حَتَّى مَتَى أَنا فِي حَلٍّ وتِرْحالِ وطُولِ هَمٍّ بإِدْبارٍ وإِقْبالِ

---

(١) صريع الغواني، شرح ديوانه، ص٣٤٣.
(٢) ابن المرزبان، الشوق والفراق، ص١١٠.
(٣) ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ص٨٠.

أُكابِــــدُ الــــدَّهْرَ لا أَنْفَــــكُّ مُغترِبــــاً   عَــنِ الأَحِبَّــةِ لا يَــدرُونَ مــا حَــالي

في مَشْرِقِ الأَرْضِ طَــوراً ثُــمَّ مَغْرِبِهــا   لا يخطرُ المَوتُ مِنْ ذكرى عَلَــى بــالي

وهذا عَوْف بن مُحَلِّم الخزاعي (ت٢٢٠هـ) عندما كان في الرّيّ مع عبد الله بن طــاهر، وقد طال فراقه لأهله ووطنه بغداد، وعبثت بقلبه مشاعر الغربة، فحنّ إليهم، وسمع نواح حمــام فأثارت عواطفه، وتذكّر أبناءه الصغار، فقال يشكو الغربة(١):

أَفِــي كُــلِّ عــامٍ غُرْبَــةٌ ونُــزُوحُ   أَمــا للنَّــوَى مِــنْ وَنْيَــةٍ فتُــرِيحُ(٢)

لَقَــدْ طَلَّــحَ البَــيْنُ المُــشِتُّ رَكــائِبي   فهَــلْ أَرَيَــنَّ البَــيْنَ وهْــوَ طَلِــيحُ(٣)

وأَرَّقَنِــي بــالرَّيِّ نــوحُ حَمامَــةٍ   فنُحْــتُ وذُو اللُّــبِّ الحــزينُ يَنُــوحُ

علــى أَنَّهــا ناحَــتْ فلَــمْ تُــرِ عَبْــرَةً   ونُحْــتُ وأَسْــرابُ الــدُّمُوعِ سُــفُوحُ(٤)

وناحَــتْ وفَرْخاهــا بحيــثُ تَراهُمــا   ومــنْ دُونِ أَفْراخِــي مَهامِــهُ فِــيحُ(٥)

ألا يــا حمــامَ الأيــكِ فرخُــكَ حاضــرٌ   وغــصنك ميَّــادٌ فَفِــيمَ تنــوحُ

عَسَى جُودُ عبــدِ الله أنْ يَعْكِــسَ النَّــوَى   فتُضْحِي عَصا التَّسْيارِ وهْــيَ طَــرِيحُ(٦)

يوحي أسلوبا الاستفهام في الأبيات السابقة (أفي كلّ عام..؟ أمــا للنــوى...؟) بمعانــاة الشاعر وضيقه من الغربة، كما يعكسان لهفته في الخلاص منها، والرجوع إلى الوطن والأهل.

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص١٨٧، ١٨٨.

(٢) النوى: البعد والتّحول من مكان إلى آخر. ونية: فترة.

(٣) طلح: أفسد. البين البعد والفراق. المشتّ: المشتت والمفرّق. ركائبي: الركائب هي الإبل التي يسار عليهــا. طليح: هزيل.

(٤) سفوح: غزيرة.

(٥) مهامه: جمع مهمه، وهي الفلاة والمفازة البعيدة. فيح: واسعة.

(٦) التسيار: الذّهاب والرّحيل. طريح: بعيدة.

وقد استدعى الشاعر الحمام فنياً؛ ليجعل من أصواته مثيراً يهيج مشاعره ويحول بينه وبين النوم من ناحية، ومعادلاً موضوعياً لغربته من ناحية أخرى، فيعقد مقارنة بين حاليهما، ويمعن في تعميق المفارقة؛ محاولاً أن يسوغ حزنه وبكاءه. كما أنّه استدعى البكاء والدّموع؛ للتعبير عن ألم الغربة، فتكرار (نَوْح، فنحت، ينوح، عبرة، نحت، الدُّموع، ناحت، تنوح) يعكس حالة الضيق والانكسار التي تنتابه.

ولعلّ أحرج اللحظات وأقساها على الغريب تكون حين يقابل وجوهاً خارج وطنه، فلا يرى وجهاً واحداً يعرفه، ليستطيع أن يطمئنّ إليه ويسكّن روعه. فهذا أبو تمّام حينما رحل إلى نيسابور، عبثت بقلبه مشاعر الغربة، وأحس بالألم والضيق بين أناس لم يألفهم؛ فهو بعيد عن أهله ووطنه الشّام، وغريب تغاديه الهموم والأوجاع، لا يؤنسه قريب ولا يساعده رحيم، قال[(١)]:

صَرِيعُ هَوىً تُغَادِيهِ الهُمُومُ ... بنيسابُورَ لَيسَ لَهُ حَمِيمُ[(٢)]

غَرِيبٌ لَيسَ يُؤْنِسُه قَرِيبٌ ... ولا يَأْوِي لِغُرْبَتِهِ رَحِيمُ

مُقِيمٌ في دِيارِ نَوىً شَطُونٍ ... يُشَافِهُه بِها كَمَدٌ مُقِيمُ[(٣)]

فَلا عَجَبٌ وإن كَظَّتْ رِكابي ... بأَرضٍ طارَ طائرُهَا المَشُومُ[(٤)]

فقَدْ فارَقْتُ بالغَرْبِيِّ داراً ... بأَرضِ الشَّامِ حُفَّ بِها النِّعِيمُ

هيَ الوطنُ الذي فارَقْتُ فيهِ ... وفارَقَني المُساعِدُ والنَّدِيمُ

---

(١) أبو تمام، ديوانه بشرح التبريزي، ٤/٥٣٦، ٥٣٧.

(٢) صريع: مجنون. تغاديه: من الغدوة وهي البكرة بين صلاة الغداة وطلوع الشمس، وأراد تأتيه باكراً. الهموم: جمع همّ، وهو الحزن. حميم: الحميم هو القريب الذي تَوَدُّه ويَوَدُّك.

(٣) شطون: بعيدة شاقّة. يشافهه: يكلّمه. كمد: الكمد هو أشدّ الحزن.

(٤) كظّت: جَهَدَت. ركابي: الرّكاب الإبل. مشوم: من الشؤم وهو خلاف اليُمْن.

تعكس الأبيات السابقة إحساس الشاعر بقيمة الوطن والأهل، وشدّة تعلّقه بهما، وذلك حينما فارقهما، وأصبح غريباً نائياً. ولعلّ إحساسه بالتشاؤم في ديار الغربة (بأرض طار طائرها المشوم) قد سيطر على الأبيات، من خلال ما بثّه من هموم وأحزان. ويأتي نفي الشاعر لوجود (حميم أو قريب أو رحيم) يخفّف عنه ألم الغربة ولوعة الفراق؛ ليفصح عن المعاناة والحرقة التي تنتابه، والشعور بالوحدة والوحشة؛ فراح يتذكر وطنه وأهله، ويحنّ إليهم، ويتحسّر على فراقهم.

وحين رحل أبو تمام إلى العراق، طلباً للرزق، لم يسعفه العراق في قضاء مآربه، وأحسّ بالضيق والانكسار بعيداً أهله ووطنه ودمشق، فهو غريب لا يستمع إليه أحد، ولا يعرف إلا الحزن والبكاء، لا يسعفه إلا دمشق وأهلها، قال[١]:

متى يُرْعِي لِقَوْلِكَ أَو يُنِيْبُ	وخِدْنَاهُ الكآبةُ والنَّحِيبُ[٢]
وما أَبْقَى على إدمانِ هذا	ولا هاتَا العُيونُ ولا القُلُوبُ
أرومُ حمى العِراقِ فتَدَّريني	رُماةُ جوىً لِشجْوٍ ما تصيبُ[٣]
وتُسعفني دِمشْقُ وساكنوها	ولا صَدَدٌ دمشقُ ولا قريبُ[٤]
بِلادٌ أَفقَدتْنِيها هَنَاتٌ	يُشيِّبُ كَرُّها مَنْ لا يَشِيبُ[٥]

---

(١) أبو تمام، ديوانه بشرح الخطيب التبريزي، ٤/٥٥٢- ٥٥٥.

(٢) يرعي: يصغي. ينيب: يرجع. خدناه: مثنى خدن، وهو الصديق. الكآبة: سوء الحال والانكسار من الحزن. النحيب: رفع الصوت بالبكاء.

(٣) أروم: أطلب. تدّريني: تختلني أو تخدعني. شجو: الشجو هو الهمّ أو الحزن.

(٤) تسعفني: تعينني. صدد: قرب.

(٥) هنات: داهية. كرّها: رجوعها.

ويتذكّر أبو تمام في غربته والدته، ويشتاق إليها، بأبيات تفيض بعاطفة صادقة، قال(١):

وكـــمْ عَدَويَّـــةٍ مِـــنْ سِـــرِّ عمـــرٍو　　لهـــا حَـــسَبٌ إذا انتَـــسَبَتْ حَـــسِيبُ
لهَـــا مِـــن طَيِّـــيءٍ أُمٌّ حَـــصَانٌ　　نَجِيبـــــةُ مَعْـــــشَرٍ وأَبٌ نَجِيـــــبُ
تَمنَّـــى أَنْ يَعُـــودَ لهـــا حَبِيـــبٌ　　مُنـــىً شَـــطَطاً وأَيـــنَ لهـــا حَبِيـــبُ

وحين تطول غربة أبي تمام، ويطول فراقه لأهله ووطنه، يزداد حنينه وشـوقه إلـيهم، يشعر بأنّ الغربة أصبحت جزءاً منه، فهو لا يستقر في وطن، ولا يتوقف سفره وترحاله، فـلا يملك إلا أن يتذكر أهله ووطنه في الشام. وانظر إليه كيف استدعى الرمز الـديني (الخِـضْر) ووظّفه في التعبير عن كثرة التنقّل والترحال بين البلدان، ثمّ إنّه يعدّد الأماكن التي تنقّل بينهـا، قال(٢):

مـــا اليَـــومُ أوّلَ توديـــعٍ ولا الثّـــاني　　البَـــيْنُ أَكْثَـــرُ مِـــنْ شَـــوْقي وأَحْزَانـــي
دَعِ الفِـــرَاقَ فـــإِنَّ الـــدَّهْرَ سَـــاعدَه　　فصَارَ أَمْلَـكَ مِـنْ رُوحِـي بِجُثْمـاني(٣)
خَلِيفَةُ الْخِضْرِ مَـنْ يرْبَـعْ علـى وَطَـنٍ　　في بلـدةٍ فظهـورُ العِـيْسِ أَوْطـاني(٤)
بالـشَّامِ أَهْلِـي وبَغْـدَادُ الْهَـوَى وَأَنـا　　بـــالرَّقَّتين وبالفُـــسْطاطِ إِخْـــوَاني(٥)
وَما أَظُنُّ النَّوَى تَرْضَـى بمـا صَـنَعَتْ　　حتَّـى تُطَـوِّحَ بـي أَقْـصَى خُراسـانِ
خَلَّفْـتُ بـالأُفُقِ الغَرْبـيّ لـي سَـكَناً　　قَدْ كـانَ عَيْـشي بـه حُلْـواً بِحُلْـوانِ(٦)

---

(١) أبو تمام، ديوانه بشرح الخطيب التبريزي، ٥٥٦/٤.
(٢) المصدر السابق، ٣٠٨/٣- ٣١٠.
(٣) جثماني: جسمي.
(٤) خليفة: الخليفة من يقوم مقام الذاهب ويسدّ مسدّه. الخضر: نبيّ مُعمَّر يطوف بالبلاد محجوب عن الأبصار.
(٥) الرّقتين: هما الرّقة والرّافقة وهما بلدان متصلان البناء على ضفة نهر الفرات.
(٦) حلوان: قريتان واحدة بالعراق وأخرى بالشام.

وحين رحل أبو تمام إلى مصر، طلباً للرزق، عبثت بقلبه مشاعر الغربة، وأحسّ بالفشل والضياع، خاصةً أنّه لم يحقّق آماله، ولم يمتّع بالمال أو الأهل، قال(١):

لقَدْ طَلَعَتْ في وَجْهِ مِصْرَ بِوَجْهِهِ   بِلا طالعٍ سَعْدٍ ولا طائرٍ سَهْلِ
وَساوِسُ آمالٍ ومَذْهَبُ همَّةٍ   تَخَيَّلُ لي بَيْنَ المَطِيَّةِ والرَّحْلِ
نَأَيْتُ فلا مالاً حَوَيْتُ ولم أُقِمْ   فأُمْتَعَ إذْ فُجِّعْتُ بالمَالِ والأَهْلِ

لقد كان طلب الرّزق دافعاً قوياً، جعل الشعراء ينزحون عن أوطانهم وأهلهم، فمنهم من أصاب الغنى والثروة ومنهم من لم يوفّق في ذلك، ولكن في كلا الحالتين كانت الغربة قاسيةً على نفوسهم، فأحسّوا بالذّلّ والمعاناة، فهذا عليّ بن الجهم (ت٢٤٩هـ) دفعه الفقر إلى الرّحيل عن الأحبة والوطن طلباً للرّزق، وما إن فارقهم حتى شعر بالضيق، وضعف الجسد، فقال(٢):

طَلَبُ الْمَعاشِ مُفَرِّقٌ   بَيْنَ الأحِبَّةِ والوَطَنْ
ومُصَيِّرٌ جَلَدَ الْجليـ   ـدِ إلى الضَّراعةِ والْوَهَنْ
حتَّى يُقادَ كما يُقا   دُ النِّضْوُ في ثِنْي الرَّسَنْ
ثمَّ الْمَنيَّةُ بعْدَ ذا   فكأنَّهُ ما لَمْ يكُنْ

وتروي المصادر أنّ عليّاً نُفِيَ إلى خراسان، وسجن هنالك، وبعد أن أطلق من حبسه، رآه رجل من أهل خراسان جالساً في المقابر، فقال له: ويحك ما يجلسك ههنا؟ فقال(٣):

يشتاقُ كلُّ غريبٍ عندَ غربتِهِ   ويَذْكرُ الأهْلَ والجيرانَ والوطَنا
وليسَ لي وطنٌ أمسيْتُ أذكرُهُ   إلاَّ المقابرَ إذْ صارَتْ لَهُمْ وطَنا

---

(١) أبو تمام، ديوانه بشرح الخطيب التبريزي، ٥٢٣/٤، ٥٢٤.
(٢) علي بن الجهم، ديوانه، ص٢٢٢.
(٣) المصدر السابق، ص٢١٦. وانظر الخبر في: ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص٣٥٩.

والغريب دائم الشعور بالحزن والمعاناة، فهذا الحسن بن مخلد بن الجَّـراح (ت٢٦٩هـ) عندما كان غريباً في مصر، أحسّ بمعاناة الغربة بعيداً عن وطنه العراق، وأضناه الهمّ والحزن لفراق الوطن والأهل والأبناء، فهو يمسي ويصبح من غيرهم، وانظر إلى أبياته التي تعبر عن إحساس بالحزن، وشعور بالحسرة والندم على الرحيل وترك العراق، قال[1]:

مَـــنْ لِلغَريـــبِ النَّـــازحِ الـــوَطَنِ ... مَـــنْ للغَريـــبِ أسـيرِ الهَـــمِّ والحَـــزَنِ
مَـــنْ للغَريـــبِ الـــذي لا مُـــستراحَ لـــهُ ... مِـــنَ الهُمـــومِ ولا حَـــظٌّ مـــن الوَسَـــنِ
يُمـــسي ويُـــصبحُ لا أهـــلٌ ولا ولـــدٌ ... ولا يَعُـــودُ إلـــى خِـــلٍّ ولا سَـــكَنِ
خَلَّى العِـراقَ وقـد كانَـتْ لـهُ وطنـاً ... لا خيرَ في عيشِ منقـولٍ عـن الـوطنِ
لا خيرَ في عيشِ نـائي الـدَّارِ مُغتـربٍ ... يأوي إلـى حَـزَنٍ ناهيـكَ عـن حَـزَنِ
يا أهل كم فـاتني مـن حُـسنِ مُـستَمعٍ ... مـــنكم وفارقتُـــهُ مـــن مَنظَـــرٍ حَـــسَنِ

---

(١) ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ص٦٧. والصفدي، الوافي بالوفيات، ١٦٨/١٢.

الفصل الثالث:

الوسائل الفنية في شعر الحنين:

(الإبل- الحَمام - الرِّياح - البروق - النُّجوم - النَّخل - الدُّموع - الطَّيف).

الوسائل الفنية في شعر الحنين

يقصد بوسائل الحنين الفنية ما يستعين به الشعراء من عناصر الطبيعة والخيال وغيرها؛ للتعبير عن حنينهم إلى أوطانهم وأهلهم، ولتصوير ما يشعرون به من ضيق وانكسار بسبب الغربة والنزوح عن الوطن. ومن أهم هذه الوسائل: الإبل، والحمام، والرياح، والبروق، والنجوم، والنخيل، والبكاء والدموع، والطيف والخيال(١).

الإبل:

ارتبط ذكر الإبل بشعر الحنين إلى الوطن؛ وذلك لما أثر عنها من شدّة التعلّق بابنها، وبالدّيار التي نشأت فيها، ولارتباط الشاعر العربي بناقته في حلّه وترحاله. وما أكثر ما كان العربي يناجي ناقته وهو يقطع الفيافي والقفار، ولا يجد من يخاطبه من الصحاب والمرافقين في الرّحلة، فيلجأ للناقة وهو يركبها ويجعل منها إنساناً يبثّه أشجانه ويصوّر حالته التي يعاني منها، ويجعل منها مثيراً لشوقه وحنينه، قال إبراهيم بن العباس (ت٢٤٣هـ)(٢):

باتتْ تشوقني برجعِ حنينِها ... وأزيدُها شوقاً برجعِ حنيني

نِضوينِ مغتربينِ بينَ مهامِهٍ ... طويا الضُّلوعَ على هوىً مكنونِ

لو سوئِلتْ عنا القلاصُ لأخبرتْ ... عن مستقرٍّ صبابةِ المحزونِ

وقد يستدعي الشعراء الإبل فنياً لتصوير شدّة حنينهم، والتعبير عن المعاناة التي تصيبهم بعيداً عن أوطانهم، فيجعلون منها معادلاً موضوعياً لحنينهم وغربتهم، قال ابن الدُّمينة(٣):

وَمَا عَوْدٌ تضمَّنَ بَطْنَ عِرْضٍ ... يَمَانِي الشَّوْقِ مُضْطَمِرٌ غَلِيْلا

---

(١) انظر: حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص٢٢١.

(٢) إبراهيم بن العباس، حياته وأدبه وشعره، أحمد جمال العمري، ١٩٩٠م، دار المعارف، القاهرة، ص٢٣١.

(٣) ابن الدمينة، ديوانه، ص٢٤، ٢٥.

يَحِـــــنُّ إِذَا الرَّكَائِــــبُ باكَرَتْـــــهُ ضُـــحَيًّا أَوْ هَبَـــبْنَ لَـــهُ أَصِـــيْلا
بِـــأَنْكَرَ لَوْعَـــةً مِنِّــي وَوَجْـــداً عَلَـى إِضْـمَارِيَ الهَجْـرَ الطَّــوِيْلا

إذن فقد وظّف الشعراء الإبل في التعبير عن حنينهم من خلال تصويرها وهي تحنّ إلى أولادها ومرابضها، ووظّفوها في بثّ شكواهم حين كانوا يشعرون بمعاناة الابتعاد عن الـوطن والأهل، فتراهم يناجونها ويسقطون عليها أحاسيسهم ومشاعرهم، كما أنّهم جعلوا منها معـادلاً موضوعياً لأنفسهم حين ينزحون عن ديارهم. وعدا عن ذلك فهي وسيلة حاولوا التستر خلفهـا؛ كي لا يظهروا ضعفهم وعجزهم.

الحَمام:

لقد كان الحمام مثيراً لأحاسيس الشعراء وعواطفهم، خاصةً عندما يغتربون عن أهلهـم وأوطانهم، فاقترن ذكره بشعر الحنين، وشاركوه عواطفهم، وتجـاوبوا مـع الأصـوات التـي يصدرها، ورأوا فيها بكاءً ونواحاً حزيناً على فقد حبيب أو وطن. وربما وجدوا فيه شبيهاً لهـم في حنينهم واشتياقهم؛ لما عرف عن هذا الطائر من شدة تعلقه بموطنه وإلفه، وما يـردده مـن أصوات حزينة، تمتد إلى النفوس؛ فتثير المشاعر الخامدة. وما انفكّ الحمام يردّد هذه الأصوات الشجية في الشجر الملتف في الأماكن البعيدة النائية، حتى إذا ما استمع إليها الـشاعر الغريـب لاقت صدىً في نفسه، وأثارت ما كمن في لواعجه من كتمان للمعاناة ومحاولة لنسيانها والتّسلي عنها بأي شيء يتلهى به، وقد كانت أصوات الحمام تثير عواطف الشعراء؛ فتدفعهم إلى الحنين والبكاء، وهذا ما نصّوا عليه(١). قال ابن الدُّمينة(٢):

يَهِـيجُ علـيَّ الـشَّوقَ صَـوْتُ حَمامَـةٍ مُطَوَّقَـةٍ يُـرْدي المُحِـبَّ نَئِيمُهـا

---

(١) انظر: حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص٢٢٢.
(٢) ابن الدمينة، ديوانه، ص٣٨.

وقال العباس بن الأحنف[(١)]:

رَأَيْـــتُ الْحَمَـــامَ فَهَيَّجْنَنِـــي وَفَيَّضْنَ مِـنْ عَبرَاتِـي غُرُوبــاً

نَـواعِمَ بَـيْنَ غُـصونِ الأَرا كِ صادَفْنَ أَمْنــاً وَخَفْـضاً وَطِيْبــا

فَلَمَّـا بَكَيْـتُ وَأَبْكَيْـتُهُنَّ تَمَنَّيْـتُكُمْ أَنْ تَكونـوا قَرِيبــا

وقال[(٢)]:

أَهاجَـكَ صَـوْتُ قُمْـرِيٍّ يَنَـوحُ نَعَـمْ فالـدَّمعُ مُطَّـرِدٌ سَـفوحُ

وقال أبو عيينة[(٣)]:

وإذا مـا بكـى الحَمـامَ بكينـا لِبُكـاهُ كأنَّنـا صِـبيانُ

وقال القاسم بن يوسف[(٤)]:

وغـرَّد قمـري علـى فـرع ضـالة لـهُ بـين أفنـان الغـصون هَـدِيل

إذا مـا دعـا شَـجواً بكيـتُ صـبابة كلانـا لـه جـنحَ الظـلام عويـل

وقال إسحاق الموصلي[(٥)]:

ذَكَـرَ الأحبَّـةَ فاسـتُجِنَّ فهاجـه للـشوق نـوحُ حمامـةٍ وحَمـامِ

وقال عبد الصّمد بن المعذّل[(٦)]:

فإنْ هاجَ نوحُ الأيكِ في رونـقِ الـضُّحى تـذكرَ محـزونٌ أو ارتـاحَ مُقْـصِرُ

---

(١) العباس بن الأحنف، ديوانه ص٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص٧١.

(٣) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص١٨٧.

(٤) الصولي، أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ص١٩١.

(٥) إسحاق الموصلي، ديوانه، ص١٨٧.

(٦) عبد الصمد بن المعذل، ديوانه، ص١٢٠.

ولم يكن الحمام يثير عواطف الشعراء فحسب، بل إنّ بعضهم جعل من الحمامة إنساناً يحاوره ويبادله المشاعر، فهي لا تكفّ عن الهديل حتى يأوي إليها الشاعر، قال طارق بن نابي[١]:

ألا قاتَلَ اللهُ الحَمامَةَ غُدْوَةً ... على الغُصْنِ ماذا هَيَّجَتْ حينَ غَنَّتِ
تَغَنَّتْ بِصَوْتٍ أَعْجَمِيٍّ وهَيَّجَتْ ... جَوايَ الذي كانتْ ضُلُوعِي أَجَنَّتِ
فَمَا سَكَتَتْ حَتَّى أَوَيْتُ لِصَوْتِهَا ... وَقُلْتُ تَرَى هَذِي الحَمَامَةُ جُنَّتِ

وابن الدّمينة يخاطب الحمامات ويطلب إليها الرجوع إليه ليسمع أصواتها، لأنّه وجد فيها تعبيراً عن حزنه الذي يخفيه ولا يريد أن ينكشف أو أن يبوح به[٢]. قال[٣]:

ألا يا حَماماتِ اللِّوى عُدْنَ عَوْدَةً ... فإنِّي إلى أَصْواتِكُنَّ حَزينُ
فَعُدْنَ فَلمَّا عُدْنَ كِدْنَ يُمِتْنَني ... وكِدْتُ بأَسْراري لَهُنَّ أُبِينُ
وَعُدْنَ بِقَرْقارِ الهَديرِ كأَنَّما ... شَرِبْنَ حُمَيَّاً أو بِهِنَّ جُنونُ
ولَمْ تَرَ عَيْني قَبْلَهُنَّ حَمائِماً ... بَكَيْنَ ولَمْ تَدْمَعْ لَهُنَّ عُيونُ
فَكُنَّ حَماماتٍ جَمِيعاً بِنِعْمَةٍ ... فَأَصْبَحْنَ شَتَّى ما لَهُنَّ قَرينُ
فَأَصْبَحْنَ قَدْ فُرِّقْنَ غَيْرَ حَمامَةٍ ... لَها عِنْدَ عَهْدٍ بالحَمامِ حَنينُ

وقد يصل الأمر ببعض الشعراء أن يتخيل الحمامة إنساناً غريباً، يحنّ إلى وطنه وأهله؛ وذلك ليعبر عن شعوره بالغربة والحنين، محاولاً التستّر خلفها، قال بشار بن برد[٤]:

---

(١) البصري، الحماسة البصرية، ٢/١٤٣، ١٤٤.
(٢) حور، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، ص٢٢٣.
(٣) ابن الدمينة، ديوانه، ص٣٩، ٤٠.
(٤) ابن المرزبان، الحنين إلى الأوطان، ص٧١.

ناحَـــــتْ مُطوَّقـــــةٌ ببـــــابِ الطَّـــــاقِ　　فجَـــرَتْ ســـوابقُ دَمْعِـــكَ المُهْـــرَاقِ
طَرِبَـــتْ إِلـــى أَرْضِ الحِجَـــازِ بحُرْقَـــةٍ　　فَـــشَجَتْ فُـــؤَادَ الهَـــائمِ المُـــشْتَاقِ
كانـــت تُفَـــرِّخُ فـــي الأَراكِ وربَّمـــا　　كانـــتْ تُفَـــرِّخُ فـــي فُـــرُوعِ الـــسَّاقِ
فأتى الفِـراقُ بِهـا العِـراقَ فأصـبحتْ　　بعـــدَ الأنـــيسِ تَنُـــوحُ فـــي الأَســـواقِ
فُجِعَـــتْ بأفرخِهـــا فأسْـــبَلَ دمعهـــا　　إنَّ الـــــدُّموعَ تبـــــوحُ بالمـــــشتاقِ
إنَّ الحمـــائمَ لـــم تَـــزَلْ بحَنِينِهـــا　　قِـــدماً تُبَكِّـــي أَعْـــيُنَ العُـــشَّاقِ

وقد يقوم بعض الشعراء بعقد مقارنة بين حاله في غربته وبين حال الحمامة؛ ليعمّق من خلال ذلك الإحساس بمعاناة الغربة والابتعاد عن الأهل والوطن، قال عوف بن محلّم[١]:

وأَرَّقَنِـــي بـــالرَّيِّ نـــوحُ حَمامَـــةٍ　　فنُحْـــتُ وذُو اللُّـــبِّ الحـــزينُ يَنُـــوحُ
علـــى أَنَّهـــا ناحَـــتْ فلَـــمْ تُـــرِ عَبْـــرَةً　　ونُحْـــتُ وأَسْـــرابُ الـــدُّمُوعِ سُـــفُوحُ
وناحَـــتْ وفَرْخاهـــا بحيـــثُ تَراهُمـــا　　ومـــنْ دُونِ أَفْراخِـــي مَهامِـــهُ فِـــيحُ
ألا يـــا حمـــامَ الأيـــكِ فرخُـــكَ حاضـــرٌ　　وغـــصنك ميَّـــادٌ فَفِـــيمَ تنـــوحُ

الرِّياح:

ومما أثار عواطف الشعراء ومشاعرهم الرّياح والنسيم، خاصّةً تلك التي تهبّ من نحـو الوطن، حاملةً معها رائحة ترابه ونباته، وإذا ما أحسّ بها شعراء الغربة حنّـوا إلـى وطـنهم واشتاقوا إلى أهلهم وأحبتهم، فكانت تهيجهم وتدفعهم إلى الحنين، قال ابن الدّمينة[٢]:

---

(١) ابن المعتز، طبقات الشعراء، ص١٨٧، ١٨٨.

(٢) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٠٨.

تَهِــيْجُ عَلَــيَّ الــشَّوْقَ بَعْــدَ انْدِمَالِـــهِ　　　يَمَانِيَّـــــــةٌ عُلْوِيَّـــــــةٌ وَجَنُـــــــوْبُ

وقال(١):

أَلاَ يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْــتِ مِــنْ نَجْــدِ　　　لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْــداً عَلَــى وَجْــدِي

وقال بكر بن النطّاح(٢):

نَــــسِيْمُ المُــــدَامِ وَبَــــرْدُ الـــسَّحَرْ　　　هُمَـــا هَيَّجَـــا الـــشَّوْقَ حَتَّـــى ظَهَـــرْ

وللرياح تأثير إيجابي في نفوس الشعراء، فهي تريحهم من عناء الغربة، وتخفّف عــنهم ألم الفراق وبعد الأحبة، قال يحيى بن المبارك اليزيدي(٣):

وَتَـــسْتَرِيْحُ إِلَـــى رِيْـــحٍ مُؤَدِّيَـــةٍ　　　رَيَّـــا الأَحِبَّـــةِ تَأْتِيْنَـــا عَلَـــى مَهَـــلِ

إِذَا جَـــرَتْ لَـــمْ يَعُقْهَـــا أَنْ تُبَلِّغَنَـــا　　　نَـــسِيْمَهُمْ عِـــرْضُ رَمْـــلٍ لا وَلا جَبَـــلِ

وقال ابن الدّمينة(٤):

إِنَّ النَّسِيْمَ العَــذْبَ مِــنْ نَحْــوِ أَرْضِــهَا　　　يَجِـــيءُ مَرِيْـــضاً صَـــوْبُهُ فَيَطِيْـــبُ

وعندما تهب الريح صباحاً، رقيقةً عذبةً نديةً، وقد عُطــرت برائحـــة نباتـــات الـــوطن العطرة، يكون صداها كبيراً على الشعراء، قال إسحاق الموصلي(٥):

يـــا حَبّـــذا ريـــحُ الجَنـــوبِ إذا بـــدتْ　　　فـــي الـــصُّبح وهـــي ضـــعيفةُ الأنفـــاسِ

قـــد حُمِّلـــتْ بـــردَ النَّـــدَى وتَحمّلَـــتْ　　　عَبَقـــاً مـــن الجَثْجَـــاثِ والبَـــسْبَاسِ

مـــاذا تَهِـــيج مـــن الـــصَّبَابة والْهَـــوَى　　　للـــــصَّبِّ بعـــــد ذهولـــــه واليـــــاسِ

---

(١) ابن الدمينة، ديوانه، ص٨٥.
(٢) الأصفهاني، الأغاني، ١٢٤/١٩.
(٣) اليزيديون، شعر اليزيديين، ص٧٠.
(٤) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٠٨.
(٥) إسحاق الموصلي، ديوانه، ص١٤٤.

وقد وصل الأمر ببعض الشعراء أن صوّر الرياح إنساناً ينقل السلام بينه وبين أحبتـــه، قال العباس بن الأحنف[(١)]:

وَإِنِّـــي لأَسْـــتَهدِي الرِّيـــاحَ ســـلامَكُمْ إِذَا أَقْبَلَـــتْ مِـــنْ نَحـــوِكم بِهُبـــوبِ
وَأَسْـــأَلُها حَمـــلَ الـــسَّلامَ إِلـــيكُمُ فَـــإِنْ هِـــيَ يومـــاً بَلَّغَـــتْ فَـــأَجِيْبِي

وقال[(٢)]:

يَـــا لَيـــتَ أَنَّ الرِّيـــاحَ جاريـــةٌ تَـــسْعَى بِحاجَتِنـــا وَتَخْتَلِـــفُ

وقال طارق بن نابي[(٣)]:

وكانَـــتْ رِيـــاحٌ تَحْمِـــلُ الحـــاجَ بَيْنَنـــا فقَـــدْ بَخِلَـــتْ تِلْـــكَ الرِّيـــاحُ وضَـــنَّتِ

البروق:

أكثر شعراء الغربة من ذكر البرق، وكان البرق مما يذكّرهم أوطانهم وأهلهـــم، فيثيـــر مشاعرهم، ويحرك أحاسيسهم، ويدفعهم إلى الحنين، وهو ما نصّ عليه الشعراء، قال مروان بن أبي حفصة (ت١٨٢هـ)[(٤)]:

مـــا يلمـــعُ البـــرقُ إلاَّ حـــنَّ مغتـــربُ كأنَّـــه مـــن دَواعِـــي شـــوقِهِ وَصِـــبُ

وقال القاسم بن يوسف[(٥)]:

طربـــتَ وشـــاقتك البُـــروقُ اللوامـــعُ بأكنـــاف مـــروٍ والهـــوى بـــكَ نـــازِعُ

---

(١) العباس بن الأحنف، ديوانه، ص٦.
(٢) المصدر السابق، ص١٨٨.
(٣) البصري، الحماسة البصرية، ١٤٤/٢.
(٤) مروان ابن أبي حفصة، ديوانه، ص٢٠.
(٥) الصولي، أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ص١٨٤.

وقال محمد بن عبد الملك الفقعسي[(١)]:

وَأَشْــــتاقُ لِلْبَــــرْقِ الْيَمَـــانِي إِنْ بَـــدا   وَأَزْدادُ شَـــــوْقاً أَنْ تَهُـــــبَّ جَنَـــــوبُ

وحين يلمع البرق ليلاً فإنّه يترك الشعراء في حالة من القلق، والعجز عن النّوم، فيبقـى متقلّباً في فراشه، قال ابن الدّمينة[(٢)]:

هَاجَـــكَ البَـــرْقُ اليَمَـــانِي مَوْهِنـــاً   فَلَـــــهُ نَوْمُـــكَ تَغْمِيْـــرٌ وَسُـــهُدْ

رَاحَ للعَـــــيْنِ بـــــأَعْلَى رَاحَـــــةٍ   لِجِنَـــــابٍ حَبَّـــــذَا ذَاكَ البَلَـــــدْ

فَـــشَرَى بَـــدْرٍ فَجَنَـــى مَرْمَـــرٍ   ثَـــمَّ أَدْنَـــى عَهْـــدِ مَـــنْ كُنَّـــا نَـــوَدْ

وقال أشجع السلمي[(٣)]:

ومغتـــــربٌ يـــــنقض ليلُـــــهُ   قنوتـــــاً ومقلتُـــــه تـــــدمعُ

لقـــد زادَنـــي طربـــاً بـــالعِرا   قِ بـــــارقُ عوديـــــةٍ يلمـــــعُ

النّجوم:

ذكر شعراء الغربة النجوم كثيراً في أشعارهم، فعندما يخيم الليل على الغريب يبقى قلقاً متقلّباً في فراشه؛ لأنّه بعيد عن وطنه وأهله، قلبه معلّق بهم، وكانت النجوم تسعفهم وتخفف عنهم طول الليل؛ إذ إنّهم يقضون ليلهم يراقبونها، فهي النجوم نفسها التي كانوا يرونها في وطـنهم،

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ١٣٦/١.

(٢) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٣٣.

(٣) أشجع السلمي، حياته وشعره، ص٢٢٧.

وهي نفسها التي يراها أهلهم وأحبتهم وأصحابهم. فكان لها دور في تذكيرهم أهلهم، قال ابن الدّمينة(١):

ذَكَرْتُكِ وَالنَّجْمُ اليَمَانِي كَأَنَّهُ   وَقَدْ عَارَضَ الشِّعْرَى قَرِيعُ هِجَانِ

وقد وظّف الشعراء صورة الغريب الذي يقضي ليله يراقب النجوم للتعبير عن حالتي: الشعور بالقلق، والإحساس بالوحدة والوحشة، قال ابن الدّمينة(٢):

وَإِنِّي لأَرْعَى النَّجْمَ حَتَّى كَأَنَّنِي   عَلَى كُلِّ نَجْمٍ في السَّمَاءِ رَقِيْبُ

وتتكرّر هذه الصورة عند كثير من الشعراء، قال محمد بن عبد الملك الفقعسي(٣):

وَإِنِّي لأَرْعَى النَّجْمَ حتَّى كَأَنَّنِي   عَلَى كُلِّ نَجْمٍ في السَّماءِ رَقِيبُ

ووظّف الشعراء أيضاً صورة النّجم الثابت للتعبير عن قسوة الغربة وشدّة المعاناة والألم، قال أبو نواس(٤):

تَطَاوَلَ هذا الليْلُ حتَّى كأنّما   على نجْمِهِ ألاّ يَعُودَ يَمِينُ

وابن الدّمينة وظّف صورة النجم (سهيل) الذي تحجبه السحابة تارةً، وتظهره تارةً أخرى، في التعبير عن الأمل وعدم اليأس من زوال الغربة والرجوع إلى الوطن، قال(٥):

إِذا ما سُهَيْلٌ أَبْرزتْهُ غَمامةٌ   على مَنْكبٍ من جانِبِ الطُّورِ يَلْمَحُ

دَعا بَعضُنا بَعضاً فَبِتْنا كأَنّنا   رَأَيْنا حَبيباً كان يَنْأَى وَيَنْزَحُ

وَذلكَ أَنَّا واثِقونَ بِقُرْبِكُمْ   وأَنَّ النَّوى عَمَّا قَلِيْلٍ تَزَحْزَحُ

---

(١) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٧٠.

(٢) المصدر السابق، ص١٠٨.

(٣) الحموي، معجم البلدان، ١/١٣٦.

(٤) أبو نواس، ديوانه، ص٥٣٧.

(٥) ابن الدمينة، ديوانه، ص٢٠٢.

النّخل:

ارتبط شجر النّخل بشعر الحنين إلى الوطن؛ نظراً لما لهذه الشجرة من دلالات عند شعراء الغربة، فهي غالباً ما تذكّرهم بديارهم وأهلهم، خاصّةً عندما يرون نخلة في بلاد الغربة، فتذكّرهم بنخل بلادهم، فتراهم يحنّون إليها، ويدعون لها بالسقيا، قال الأحيمر السعدي(١):

أيا نخلاتِ الكرمِ لا زال رائحاً عليكنَّ منهلُّ الغمامِ مطيرُ
سُقِيتُنَّ ما دامت بكرمان نخلةٌ عوامرَ تجري بينهنَّ بُحُورُ
وما زالت الأيامُ حتَّى رأيتني بدَوْرَقَ مُلْقَىً بينهنَّ أدورُ
تذكِّرني أطلالَكنَّ إذا دجتْ عليَّ ظِلالُ الدَّومِ وهي هجيرُ
وقد كنتُ رمليَّاً فأصبحتُ ثاوياً بدَوْرَقَ ملقىً بينهنَّ أدورُ

وقال(٢):

ويا نَخلاتِ الكَرْخِ لا زالَ ماطرٌ عَلَيْكُنَّ مُستَنُّ السَّحابِ ذَرُورُ
سُقِيتنَّ ما دامَتْ بكرمانَ نخلةٌ عوامر تجري بينهنَّ نُهُورُ
لقَدْ كنْتُ رَمْليَّاً فأصبحتُ نازحاً بكرمانَ مُلْقىً بينهنّ أدُورُ

وقد جسّد بعض الشعراء من النخلة إنساناً غريباً يحاوره، مسقطاً على هذه الشجرة الصمّاء مشاعره وأحاسيسه، فحين احتضر مسلم بن الوليد رأى نخلةً مفردةً، فذكّرته بوطنه، فصور منها إنساناً غريباً يشاركه غربته ويشكو إليه حزنه، فقال(٣):

ألا يا نخلةً بالسَّفْـ ـحِ من أكنافِ جُرْجانِ

(١) الحموي، معجم البلدان، ٥٥٠/٢.
(٢) الحموي، معجم البلدان، ٢٨٧/٤.
(٣) صريع الغواني، شرح ديوانه، ص٣٤٣.

ألا إنِّــــــــــــــي وإيـــــــــــــاكِ　　بِجُرجـــــــــــــانَ غريبـــــــــــــانِ

والنّخل لا يذكّر شعراء الغربة بأوطانهم فحسب، بل إنّه يذكّرهم بأهلهم وأحبتهم، فحــين رأى مطيع بن إياس نخلتين متجاورتين، ذكّرتاه بحبيبته، وأيام الوصل بينهما، فــصوّر منهمــا حبيبين مجتمعين، ولجأ إلى محاورتهما؛ للتعبير عن تجربته الحزينة بسبب الغربــة والفــراق، فقال(١):

أسْـــعِداني يـــا نخلَتَـــي حُلْـــوانِ　　وابكيـــاني مـــن ريـــبِ هـــذا الزَّمـــانِ

واعْلمـــا أنَّ ريبَـــهُ لـــم يـــزلْ يفـــْ　　ـــــرِق بـــين الأُلاَّفِ والجيـــرانِ

ولعَمْـــري لـــو ذقتمـــا ألـــمَ الفـــر　　قـــة أبكاكمـــا الـــذي أبكـــاني

أسْـــعِداني وأيقنـــا أنَّ نحـــساً　　ســـوفَ يأتيكمـــا فتفترقـــانِ

الدَّموع:

حين يجد الشاعر نفسه في بلاد الغربة، بعيداً عن وطنه وأهله، ينظر في الوجــوه مــن حوله فلا يرى وجهاً واحداً يعرفه، لا يؤنسه أحد، ولا يعطف عليه أحد، ينتابه الإحساس بالوحدة والوحشة، ناهيك عن الشعور بقسوة الغربة والذلّ والمعاناة؛ ولذلك كان الشاعر الغريب يلجأ إلى الدموع والبكاء للتنفيس عن نفسه، والتخفيف من وطأة الغربة. ويعدّ البكاء سمة ملازمة للغريب حين يحنّ إلى وطنه وأهله، قال أبو عيينة(٢):

وأنـــا الغَريـــبُ فـــلا أُلامُ علـــى الْبُكـــا　　إنَّ الْبُكـــا حَـــسنٌ بِكُـــلِّ غَريـــبِ

---

(١) البصري، الحماسة البصرية، ٢/٢٢٤.

(٢) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص١١٥.

وقال محمد بن عبد الملك الفقعسي[١]:

وظَلَّتْ دُمُـــوعُ العَــينِ تُمْــرِي غُروبَهـــا   مِـــنَ الْمـــاءِ دَارَاتٌ لَهُـــنَّ شَـــعُوبُ
وما جَزَعٌ مِنْ خَــشْيَةِ الْمَــوتِ أَخْــضَلَتْ   دُمُـــوعِي ولكـــنَّ الغَريـــبَ غَرِيـــبُ

ومنذ اللحظة الأولى التي يغادر فيها الشاعر وطنه وأهله يشعر بألم الفراق؛ فيبدأ بالبكاء، قال محمد بن أمية[٢]:

بَكَيْـــتُ مِـــنَ الفِـــرَاقِ غَـــدَاةَ وَلَّـــتْ   بِنَـــا بُـــزْلُ الرِّكَـــابِ عَـــنِ العِـــرَاقِ
فَمَـــا رَقَـــأَتْ دُمُـــوْعُ العَـــيْنِ حَتَّـــى   شَـــفَى قَلبـــي العِـــرَاقُ مِـــنَ الفِـــرَاقِ

وقال إسحاق الموصلي[٣]:

أَتبكـــي علـــى بغـــدادَ وهـــي قريبـــةٌ   فكيف إذا مـــا ازددتَ منهـــا غـــداً بُعْـــدَا

والبكاء والدموع علامة من علامات الشوق والحنين إلى الوطن والأهل، ودليـــل علـــى صدق العاطفة، قال يحيى بن طالب الحنفي[٤]:

أَلا هَـــلْ لـــشيخٍ وابـــنِ ســـتين حِجَّـــةً   بكى طرَبـــاً نحـــو اليمامـــةِ مِـــنْ عُـــذْرِ

وقال أبو عيينة[٥]:

ومن الدَّلِـــيْلِ علـــى اشْـــتِياقي عَبْرَتـــي   ومَـــشِيبُ رَأْســـي قَبْـــلَ حَـــيْنِ مَـــشِيبي

---

(١) الحموي، معجم البلدان، ١/١٣٦.
(٢) السرّاج القارئ، مصارع العشّاق، ١/٢٥٥.
(٣) إسحاق الموصلي، ديوانه، ص١١٦.
(٤) يحيى بن طالب الحنفي، حياته وشعره، ص١٢٠.
(٥) أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، ص ١١٥.

وقال القاسم بن يوسف[١]:

دعـــاك ببغـــداد هـــواك وأســـبلت　　مـــدامع منهـــا قـــاطِرٌ وهُمُـــول

وحين يتذكّر الشاعر الغريب أهله الذين أصبحوا نائين عنه لا يملك إلا الحزن والبكـاء على فراقهم ومغادرة الوطن، قال ابن المولى[٢]:

إِنَّ الغَرِيْـــبَ إِذَا تَـــذَكَّرَ أَوْشَـــكَتْ　　مِنْـــهُ المَـــدَامِعُ أَنْ تَفِـــيْضَ عِـــلالا

وقال العباس بن الأحنف[٣]:

فـــأَراني إذا تـــذكَّرتُ مَـــنْ خَلَّـــ　　ـــفتُ خَلْفِـــي لـــم أَملِـــك الإِنتحابـــا

والبكاء عند شعراء الغربة تعبير عن الندم الحسرة التي تصيبهم لمغادرة الوطن والأهل، قال ابن الدّمينة[٤]:

وَلَيْـــسَتْ عَـــشِيَّاتُ الحِمَـــى بِرَواجِـــعٍ　　عَلَيْـــكَ وَلَكِـــنْ خَـــلِّ عَيْنَيْـــكَ تَـــدْمَعَا

بَكَـــتْ عَيْنِـــيَ الْيُمْنَـــى فَلَمَّـــا زَجَرْتُهَـــا　　عَنِ الْجَهْـلِ بَعْـدَ الحِلْـمِ أَسْـبَلَتَا مَعَـا

والدموع عند شعراء الغربة علامة اعتزاز ووفاء للوطن، قال أشجع السلمي[٥]:

ألا ليـــت حيّـــاً بـــالعراقِ عهـــدتُهم　　ذوي غِبطـــةٍ فـــي عيـــشهم ولَيـــانِ

يرونَ دمـــوعي حـــينَ يـــشتملُ الـــدُّجى　　علـــيَّ ومـــا ألقـــى مـــن الحَـــدَثانِ

إذن لـــرأوا جـــسماً أضـــرَّ بـــه الَهَـــوَى　　وعـــين معنّـــىً جَمَّـــة الهَمَـــلانِ

---

(١) الصولي، أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق، ص١٩٠.

(٢) الأصفهاني، الأغاني، ٣/ ١٨٩.

(٣) العباس بن الأحنف، ديوانه، ص٣٤.

(٤) ابن الدمينة، ديوانه، ص ١٧٩، ١٨٠.

(٥) أشجع السلمي، حياته وشعره، ص٢٦٧.

الطّيف:

كثر ترديد الطيف والخيال على ألسنة شعراء الغربة، وارتبط ذكره بموضوع الحنين، خاصةً عندما يرتبط الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الأهل والأصحاب والمحبوبة أو الزوجة، فإذا ما خيّم الليل وشعر الغريب بالوحدة، فإنّه يلجأ إلى الطيف والخيال ليشبع شوقه وحنينه، فيقضي حاجته من رؤية من يحب، وقد كان الطيف مثير لمشاعر الشوق والحنين، قال ابن الدّمينة(١):

فَقُلْتُ خَيَالٌ مِنْ أُمَيْمَةَ هَاجَنِي ... وَذُو الشَّوْقِ للطَّيْفِ الْمُلِمِّ طَرُوبُ

وغالباً ما يزور الطيف والخيال مساءً، عندما يحل الظلام، ويخلد الناس للنوم، فيتفاوت تأثيره على الشعراء، فمنهم من يشعر بالسعادة والفرح، كما هو حال أبي تمام، فالطيف لا يثيره فحسب، بل إنه يمتعه ويسعده، ويخرجه من حالته السيئة التي يشعر بها في غربته في مصر قال(٢):

زَائِرٌ زَارَنِي فَهاجَ خَيَالا ... كنتُ لَوْلاهُ أَسْوأَ النَّاسِ حَالا

فَتمتَّعتُ مِنْ غَزالٍ وحاشَى ... ذلكَ الشَّخصَ أَنْ يكونَ غَزَالا

كيفَ أَرجُو لِقاءَ ساكِنِ دمشـ ... ـق بمصرٍ لقَدْ رَجُوْتُ ضَلالا

مثَّلَتْهُ المُنَى لِعَيْنِي وفِكْرِي ... ولِقَلْبِي حتَّى قَبِلتُ المُحَالا

وقد يكون تأثير الطيف والخيال سلبياً على الشعراء، فينتابهم الشعور بالقلق، ويتقلبون في فراشهم، شوقاً لمن يحبون، وحزناً ولوعةً على فراقهم، وهذا حال العباس بن الأحنف يؤرِّقه طيف فوز، ويزيده شوقاً ولوعةً، فيتركه حزيناً باكياً بينما تنام عيون الناس من حوله، قال(٣):

---

(١) ابن الدمينة، ديوانه، ص١٠١.

(٢) أبو تمام، ديوانه بشرح الخطيب التبريزي، ٢٥٤/٤.

(٣) العباس بن الأحنف، ديوانه، ص١٩٧.

أَزارَ أَبـــا الفَـــضلِ الْخَيـــالُ الْمُـــؤَرِّقُ   لِفَـــوزٍ؟ نَعَـــمْ والطَّيـــفُ مِمَّـــا يُـــشَوِّقُ

تَنَـــــامُ عيُـــــونُ الكاشِـــــحِينَ قَرِيـــــرَةً   وَعَينِـــــي بأصْـــــنافِ البُكَـــــا تَتَـــــدفّقُ

والطيف يلبي حاجة الشاعر الغريب، حين يلجأ إلى تخيل من يحـــب، فيـــشبع مـــشاعر الحنين عنده، ويعينه على غربته، كما هو الحال عند العتّابي، قال(١):

إذا أشْـــحَطَتْني عـــن أخٍ غُربـــةُ النَّـــوى   وزايلَ طَرفي طَرفـــهُ قـــام فـــي وهمـــي

أصـــــوِّرُهُ بالقلـــــبِ حتَّـــــى كأنَّمـــــا   يُحـــيطُ بـــه فـــي كـــلِّ أحوالـــهِ علمـــي

ولم يكن شعراء العصر العباسي الأول بدعاً في هذه الوسائل، وإنّما ساروا فيهـــا علـــى خطى الشعراء القدامى الذين سبقوهم في العصرين الجاهلي والإسلامي، لأنّها تجسّد المـــشاعر الإنسانية الخالدة في النفوس في حالة الغربة والحنين إلى الوطن.

---

(١) ابن المرزبان، الشوق والفراق، ص١١٠.

الخاتمة

تناول هذا البحث ظاهرة الحنين بالدراسة الفنية والموضوعية، وقد تحدّد الموضوع في إطارين: زماني (العصر العباسي الأول)، ومكاني (المشرق الإسلامي)، وبعد تناول عدد من قصائد الحنين – في هذا العصر – بالدراسة والتحليل، توصلّت الدراسة إلى النتائج الآتية:

١. إنّ لشعر الحنين في العصر العباسي الأول جذوراً قديمةً ممتدةً من العصر الجاهلي، مروراً بعصر صدر الإسلام والعصر الأموي، إلا أنّ هذا الغرض ازدهر وتطور في العصر العباسي الأول كماً وكيفاً، حتى أصبح ظاهرة تميز هذا العصر.

٢. شهد العصر العباسي الأول ولادة العديد من الشعراء الذين ارتبطت أسماؤهم بحبّ الوطن والحنين إليه، من خلال ما خلّفوه وراءهم من قصائد عبّرت عن الحنين إلى الوطن والحزن لفراقه.

٣. إنّ التغير الذي طرأ على شعر الحنين في العصر العباسي الأول سببه التغير في مفهوم الوطن، فلم يعد الوطن يمثّل الحي وديار القبيلة كما هو الحال في العصور السابقة، بل أصبحت المدينة هي الوطن وإليها يحن الشعراء، فكان الحنين إلى المدن أحد أوجه التجديد الذي طرأ على شعر هذا العصر في موضوعاته وبنائه.

٤. احتلّ الحنين إلى المدن وبالأخص مدينة بغداد حاضرة الخلافة العباسية حيزاً كبيراً في شعر الحنين إلى الوطن، بعد أن أصبحت بغداد موئل العديد من الشعراء، وقد وجد فيها عدد كبير منهم موطناً لهم، بعد أن قدموا إليها من البادية أو من المدن والحواضر الأخرى، وعاشوا فيها مدة من الزمن، فأحبوها وأصبحوا يحنون إليها إذا ما غادروها.

لم تلق مدينة بغداد قبولاً عند بعض الشعراء الذين قدموا إليها من البادية أو من المدن والحواضر الأخرى، فشعروا بالغربة فيها، وذمّوها وحنّوا إلى أوطانهم، سواء أكانت باديةً أم حاضرة.

٥. احتلّ الحنين إلى البادية حيزاً محدوداً في شعر الحنين في العصر العباسي الأول؛ ومردّ ذلك إلى تحضّر معظم شعراء البادية وانخراطهم في مجتمع الحاضرة والمدينة، بالإضافة إلى عدم اتصال – من بقي منهم في باديته – بالخلفاء، وعدم نزولهم الحواضر والمدن وبالأخص بغداد والبصرة، مما حال بيننا وبين وصول أشعارهم في الحنين.

٦. على الرّغم من قلّة شعر الحنين إلى البادية، إلا إنّ بعض القصائد عبّرت عن حنين البدو إلى باديتهم، وإلى الحياة البدوية البسيطة، بما فيها من شظف العيش وقسوة الحياة، كما عبروا عن ضجرهم من حياة المدن إذا ما قدموا إليها، مما عكس حبهم لوطنهم وارتباطهم بيئتهم الصحراوية.

٧. خاض الجند الفاتحون في العصر العباسي الأول تجربة الغربة، فشاركوا في الحروب والفتوحات والمرابطة في الثّغور، وبرغم هذه الغاية السامية فإنّهم شعروا بالغربة وقسوة الابتعاد عن الأهل والوطن؛ فعبّروا عن حنينهم وغربتهم بمشاعر صادقة وعاطفة جيّاشة، ولجأ بعضهم إلى الطبيعة ووجدوا فيها متنفساً لأحزانهم ومعاناتهم.

٨. لم يكن للمرأة حضور كبير في شعر الحنين في العصر العباسي الأول، إذا ما قورنت بمثيلاتها من شاعرات الجاهلية والإسلام، إلا أنّها عبّرت في بعض القصائد عن حنينها إلى وطنها وأهلها.

١٠. غالباً ما ارتبط الحنين إلى الوطن بالحنين إلى الأهل أو الأصحاب أو المحبوبة، وغالباً ما يذكر الشاعر ذكرياته الفائتة وأيامه الماضية، وقد يمزج شعراء اللهو حنينهم إلى الوطن بالحنين إلى مجالس الأنس والشرب.

١١. الغربة هي الدافع الرئيس للحنين إلى الوطن، وقد تعدّدت دواعي الغربة عند شعراء العصر العباسي الأول، فمنهم من هاجر عن وطنه طلباً للرزق والكسب بعد أن ضاقت به السبل وهذا حال أكثر شعراء الغربة، ومنهم من هاجر طلباً للعلم (كالشافعي)، ومنهم من هاجر لأداء فريضة الحجّ (كالرّشيد ويحيى بن المبارك اليزيدي)، ومنهم من هاجر هارباً من الدَّين (يحيى بن طالب الحنفي)، أو فراراً من الثأر (ابن الدُّمينة)، ومنهم من نفي من وطنه (علي بن الجهم) أو هرب خوفاً من سجن الخلفاء (دعبل الخزاعي)، ومنهم من كان صعلوكاً خلعه قومه (الأحيمر السعدي)، ومنهم من كانت غربته من أجل الجهاد والمرابطة في الثغور.

١٢. تتكرر في معظم أشعار الحنين المواقف والمعاني والصور من مثل الشعور بالحزن لفراق الأهل والوطن، والحنين إليهما ممزوجاً بالنّدم والحسرة، وتمني الرجوع إليهما، والإحساس بالضيق والانكسار في بلاد الغربة، وتطاول الليل، والدّعاء للوطن بالسقيا، والشعور بالألم حينما يذكر الوطن على مسامع شعراء الغربة، والتسليم لقضاء الله وقدره.

١٣. قصائد الحنين عادة ليست طويلة؛ لأنّها مجرد نفثات يعبر فيها الشاعر عن عاطفة الحنين إلى الأهل والوطن، والإحساس بالغربة، ولم يعمد الشاعر الغريب إلى تجويد شعره بصفة غالبة، بل كان يعمد إلى التعبير السريع عن النفس.

١٤. امتاز شعر الحنين في العصر العباسي الأول بوضوح المعاني وعمقها وعدم الغموض وقد استمدّ شعراء هذا العصر الكثير من معانيهم من الشعراء الأوائل.

١٥. أكثر شعراء الحنين من تكرار الألفاظ المتعلقة بالحنين كالشوق والتَّوقان والفراق والبين والنوى والغربة والنُّزوح والبعد وغيرها. كما أكثروا من تكرار أسلوب التمني، الذي يوحي بلهفة الرجوع إلى الوطن ورؤية الأهل. وكذلك من تكرار أسلوب الاستفهام غير الحقيقي، الذي – غالباً– ما خرج إلى معنى التمني. كما أكثروا من استخدام أسلوب النّداء، الذي يعكس حالة الشعور بالفقد والحاجة.

١٦. نهج شعراء الحنين في العصر العباسي الأول نهج شعراء الحنين القدامى، في العصرين الجاهلي والإسلامي، في وسائلهم الفنية التي وظّفوها في التعبير عن حنينهم وغربتهم وهي: الحمام، والإبل، والرّياح، والبروق، والنّجوم، والنّخل، والدّموع والبكاء، والطّيف والخيال. فجعلوا منها مثيراً لحنينهم، ومذكّراً لهم أوطانهم وأهلهم، ولجأوا إليها للتخفيف عن أنفسهم مما كانوا يعانونه من آلام الغربة والفراق.

١٧. صدرت أشعار الحنين في العصر العباسي الأول عن عاطفة صادقة، ومشاعر جياشة، وإحساس رقيق، وعكست حبّ الشعراء الصادق لأوطانهم وأهلهم.

المصادر والمراجع

- إبراهيم، صاحب خليل، الغربة والحنين في الشعر العربي قبل الإسلام، رسالة ماجستير، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق.
- الأبشيهي، بهاء الدين أبو الفتح محمد بن أحمد المحلي، (ت ٨٥٤هـ)، المستطرف في كل فن مستظرف، تحقيق إبراهيم صالح، ١٩٩٩م، دار صادر، بيروت، لبنان.
- الأسدي، الحسين بن مطير، (ت ١٧٠هـ)، شعر الحسين بن مطير الأسدي، جمع وتقديم حسين عطوان، ١٩٦٩م، معهد المخطوطات، القاهرة، مصر.
- الإشبيلي، ابن خير، (ت ٥٧٥هـ)، فهرسة ابن خير الإشبيلي، تحقيق إبراهيم الأبيـــاري، ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م، دار الكتاب المصري، القاهرة، مصر.
- الأصبهاني، أبو بكر محمد بن داود، (ت ٢٩٧هـ)، الزهرة، تحقيق إبراهيم الــسامرائي، ط٢، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٥م، مكتبة المنار، الزرقاء، الأردن.
- الأصبهاني، أبو الفرج، (ت ٣٥٦هـ)، أدب الغرباء، تحقيــق صــلاح الــدين المنجــد، ١٩٧٢م، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان.
- الأصبهاني، أبو الفرج، (ت ٣٥٦هـ)، الإماء الشواعر، تحقيق نوري حمــودي القيــسي ويونس أحمد السامرائي، ط٢، ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- الأصبهاني، أبو الفرج، (ت ٣٥٦هـ)، الأغــاني، ط٢، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م، دار الكتــب العلمية، بيروت، لبنان.

- الأصفهاني، الراغب أبي القاسم حسين بن محمد، (ت ٥٠٢هـ)، محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، تهذيب إبراهيم زيدان، ط٢، ١٩٨٦م، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- امرؤ القيس، (ت ٨٠ ق.هـ)، ديوان امرئ القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، د.ت، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- الأنطاكي، داود، (ت ١٠٠٨هـ)، تزيين الأسواق بتفصيل أشواق العشاق، تحقيق وشرح محمد ألتونجي، ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- البصري، علي بن أبي الفرج بن الحسن، الحماسة البصرية، تحقيق مختار الدين أحمد، ط٣، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- البيهقي، إبراهيم بن محمد، (ت ٣٢٠هـ)، المحاسن والمساوئ، تحقيق وتقديم محمد سويد، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان.
- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي، (ت ٢٣١هـ)، ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق محمد عبده عزام، ، ط٤، د. ت، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- التنوخي، أبو علي المحسن بن علي، (ت ٣٨٤هـ)، الفرج بعد الشدة، تحقيق عبود الشالجي، ١٣٩٨هـ، ١٩٧٨م، دار صادر، بيروت، لبنان.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ)، رسائل الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت ٢٥٥هـ)، المحاسن والأضداد، وشرح يوسف فرحات، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م، دار الجيل، بيروت، لبنان.

- الجبوري، يحيى، الحنين والغربة في الشعر العربي، الحنين إلــى الأوطــان، ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٨م، دار مجدلاوي للنشر، عمان، الأردن.
- حبيب، وهران محمود، الحنين في شعر صدر الإســلام، رســالة دكتــوراه، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، جامعة تشرين، دمشق، سوريا.
- الحسين بن الضحاك، (ت ٢٥٠هـ)، ديوان الحسين بن الضحاك، تحقيق جليل العطيــة، ٢٠٠٥م، منشورات الجمل، بغداد، العراق.
- الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن على القيرواني، (ت ٤٥٣هـ)، زهــر الآداب وثمــر الألباب، ضبط وشرح زكي مبارك، تحقيق محمد محيــي الــدين عبــد الحميــد، ط٤، ١٩٧٢م، دار الجيل، بيروت، لبنان.
- ابن أبي حفصة، مروان بن سليمان بن يحيى، (ت ١٨٢هـ)، ديوان مــروان بــن أبــي حفصة، شرح أشرف أحمد عدرة، ١٩٩٣م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- الحموي، ياقوت، (ت ٦٢٦هـ)، معجم الأدباء إرشاد الأريــب إلــى معرفــة الأديــب، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الحموي، ياقوت، (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجنــدي، د.ت، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الحنفي، يحيى بن طالب، (ت ١٨٠هـ)، يحيى بن طالب الحنفي حياتــه وشــعره، حمــد ناصر الدخيل، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، السعودية.
- حُوَّر، محمد إبراهيم، الحنين إلى الوطن في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأمــوي، ط٢، ١٩٨٩م، دار القلم، دبي، الإمارات.

- الدباسي، عبد الرحمن إبراهيم، الشعر في حاضرة اليمامة حتى نهاية العصر الأمـوي، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، السعودية.
- دعبل الخزاعي، أبو علي دعبل بن علي، (ت ٢٤٦هـ)، ديوان دعبل الخزاعي، شـرح حسن حمد، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- ابن الدمينة، عبد الله، (ت ١٨٠هـ)، ديوان ابن الدمينة، صنعة أبي العباس ثعلب ومحمد بن حبيب، تحقيق أحمد راتب النفّاخ، د.ت، مكتبة دار العروبة، القاهرة، مصر.
- ديك الجن، عبد السلام بن رغبان، (ت ٢٣٥هـ)، ديوان ديك الجن الحمصي، تحقيق أحمد مطلوب وعبد الله الجبوري، د.ت، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- السامرائي، يونس أحمد، شعراء عباسيون، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م، عالم الكتـب، بيـروت، لبنان.
- السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي، (ت ٧٧١هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق محمود محمد الطناحي وعبـد الفتـاح محمـد الحلـو، د.ت، منشورات عيسى البابلي الحلبي، بيروت، لبنان.
- السراج القارئ، أبو محمد بن جعفر بن أحمـد بـن الحـسين، (ت ٥٠٠هـ)، مـصارع العشاق، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، دار بيروت، بيروت، لبنان.
- السلمي، أشجع، (ت ٢٠٠هـ)، أشجع الـسلمي حياتـه وشـعره، ١٤٠١هـ،١٩٨١م، دار المسيرة، بيروت، لبنان.
- الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، (ت ٢٠٤)، ديوان الـشافعي، جمـع وتحقيـق مجاهد مصطفى بهجت، ط٢، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، دار القلم، دمشق، سوريا.

- الشريف المرتضى، علي بن الحسين، (ت ٤٣٦هـ)، أمالي المرتضى غرر الفوائد ودرر القلائد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، ١٩٦٧م، دار الكتاب العربي، بيـــروت، لبنان.
- أبو الشمقمق، مروان بن محمد، (ت ٢٠٠هـ)، مختارات من شعر أبي الشمقمق، تحقيـــق كارين صادر، ٢٠٠٣م، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا.
- صريع الغواني، مسلم بن الوليد الأنصاري، (ت ٢٠٨هـ)، شرح ديوان صريع الغـــواني مسلم بن الوليد الأنصاري، تحقيق سامي الدهان، ط٣، د.ت، دار المعـــارف، القـــاهرة، مصر.
- الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، (ت ٧٦٤هـ)، الوافي بالوفيات، تحقيـــق أحمـــد الأرناؤوط وتركي مصطفى، ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م، دار إحياء التراث العربـــي، بيـــروت، لبنان.
- الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، (ت ٣٣٥هـ)، أخبار الشعراء المحدثين مـــن كتـــاب الأوراق، عني بنشره ج. هيورث. دن، ط٢، ١٤٠١هـ، ١٩٨٢م، دار المسيرة، بيروت، لبنان.
- ضيف، شوقي، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الأول، ط١٤، د.ت، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- ضيف، شوقي، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعـــصر بنـــي أميـــة، ط٥، د.ت، دار المعرف، القاهرة، مصر.
- طحطح، فاطمة، الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، ١٩٩٣م، مطبعة النجاح الجديـــدة، الدار البيضاء، المغرب.

- العباس بن الأحنف، (ت ١٩٢هـ)، ديوان العباس بن الأحنف، شــرح وتحقيــق عاتكــة الخزرجي، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م، دار الكتب المصرية، القاهرة، مصر.
- عبد النور، جبّور، المعجم الأدبي، ١٩٧٩م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- العسكري، أبو هلال، (ت ٣٩٥هـ)، ديوان المعاني، ١٩٣٣م، مكتبة القدسي، القــاهرة، مصر.
- علي بن الجهم، (ت ٢٤٩هـ)، ديوان علي بن الجهم، تحقيق خليــل مــردم بــك، ط٣، ١٩٩٦م، دار صادر، بيروت، لبنان.
- علية، بنت المهدي، (ت ٢١٠هـ)، ديوان علية بنت المهــدي، جمــع وتحقيــق ســعدي ضناوي، ١٩٩٧م، دار صادر، بيروت، لبنان.
- عمارة بن عقيل، (ت ٢٣٩هـ)، ديوان عمارة بن عقيل، تحقيق شاكر العاشور، ٢٠٠٦م، دار الينابيع، دمشق، سوريا.
- العمري، أحمد جمال، أمير البيان إبراهيم بن العباس حياته وأدبه وديوانه (ت ٢٤٣هـ)، ١٩٩٠م، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- أبو عيينة، شعر آل أبي عيينة، جمع وتحقيق ودراسة عبد القــادر الربّــاعي، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، أمانة عمان الكبرى، عمان، الأردن.
- غريب، جورج، شاعرات العرب في الإسلام، ١٩٨٥م، دار الثقافة، بيروت، لبنان.
- الغزولي، علاء الدين علي بن عبد الله البهائي، (ت ٨١٥هـ)، مطالع البدور في منــازل السرور، ١٤١٩هـ، ٢٠٠٠م، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مصر.
- القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم، الأمالي، تحقيق علــي محمــد زينــو، ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

- القرشي، أبو زيد، جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام، تحقيق محمد علي الهاشمي، ط٢، ١٩٨٦م، دار القلم، دمشق، سوريا.
- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، (ت ٧٥١هـ)، روضة المحبين ونزهة المشتاقين، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، دار الخير، بيروت، لبنان.
- المجنون، قيس بن الملوح، (ت٦٩هـ)، ديوان مجنون ليلى، جمع أبو بكر الوالبي، تحقيق جلال الدين الحلبي، ١٩٩٤م، دار النجم، بيروت، لبنان.
- ابن المرزبان، محمد بن سهل، (ت ٣٣٠هـ)، الحنين إلى الأوطان، تحقيق جليل عطية، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م، عالم الكتب، بيروت، لبنان.
- ابن المرزبان، محمد بن سهل، (ت ٣٣٠هـ)، الشوق والفراق، تحقيق جليل عطية، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان.
- ابن المعتز، عبد الله، (ت ٢٩٦هـ)، طبقات الشعراء، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، د.ت، دار المعارف، القاهرة، مصر.
- ابن المعذل، عبد الصمد، (ت ٢٤٠هـ)، ديوان عبد الصمد بن المعذل، تحقيق زهير غازي زاهد، ١٩٩٨م، دار صادر، بيروت، لبنان.
- ابن منظور، جمال الدين الأنصاري، (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- ابن منقذ، أسامة، (ت ٥٨٤هـ)، المنازل والديار، تحقيق مصطفى حجازي، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٨م، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر.

- الموصلي، إسحاق، (ت ٢٣٥هـ)، ديوان إسحاق الموصلي، جمع وتحقيق ماجد أحمد العزي، ١٩٧٠م، مطبعة الإيمان، بغداد، العراق.
- ابن النديم، إسحاق، الفهرست، تحقيق إبراهيم رمضان، ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- أبو نواس، الحسن بن هانئ، (ت ١٩٨هـ)، ديوان أبي نواس، شرح وضبط وتقديم علي فاعور، ط٢، ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- الهيتي، عامر نايف، بغداد في شعر العصر العباسي الأول حتى سنة ٣٣٤هـ، رسالة ماجستير، ١٤٠٩هـ، ١٩٨٨م، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق.
- اليزيديون، شعر اليزيديين، جمع وتحقيق محسن غياض، ١٩٧٣م، مطبعة النعمان، النجف، العراق.
- يموت، بشير، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م، دار القلم العربي، حلب، سوريا.

Abstract

Nostalgia in the poetry of the first Abbasid era
132-234 AH

By :
Issa Hasan Faleh Al- Rawajbeh

Supervisor :
Prof. Dr. Mohammad ibrahim hawar

This research aims to study the phenomenon of the nostalgia in the poetry of the first Abbasid era, and to address the development and renewal in the structure and themes of the nostalgia poetry, in a time where many events occurred in this era such as the historical an political events ,prosperity in civilization and the establishment of new regions and cities . So the poets of this era went through the experience of alienation and being away from home, wither this alienation was due to political, economical or social reasons. They also expressed the nostalgia they felt for their families and homeland in true poems.

This research includes an introduction, three chapters and a conclusion, the introduction shows the importance of the research and it's rank among the literary studies that addressed the phenomenon of nostalgia with it's sources, methods and steps. In the preface I spoke about the concept of nostalgia linguistically and idiomatically, I also spoke about what ancient writers wrote in nostalgia before the Abbasid era.

The title of the first chapter is (Nostalgia in the poetry of the first Abbasid era) , it came in four sections , the first section dealt with the nostalgia in the desert , the second section dealt with nostalgia to the cities and urban ,the third section mentions the nostalgia of the new conquerors , and the fourth section dealt with the nostalgia of women.

The title of the second chapter is (The alienation in the poetry of the first Abbasid era), in this chapter I discussed the relationship between alienation and nostalgia , so I talked about the concept of alienation and it's relationship with nostalgia, I also mentioned some sayings , proverbs and pieces of wisdom that indicates the impact of nostalgia on the foreigner, then i talked about the alienation of the poets in the first Abbasid era. The title of the third chapter is (The technical means in the poetry of nostalgia) , in this chapter I discussed the elements of nature and other means which the poets depended on to express the experience of nostalgia and alienation in the first Abbasid era , these means were taken from the first poets in both pre-Islamic and Islamic eras, these means are : camels, pigeon, wind, lightning , stars, palm trees, crying, tears, spectrum and imagination. The epilogue includes the most important results I've reached to in this research.